صيد الفوائد

مقالات في الشريعة والحياة

تَأْلِيفُ

عماد حسن أبو العينين

قدم له وراجعه

أ. د/ فَتْحِي جُمُعَة

الطَّبْعَةُ الرابعة

تَقْدِيمُ الأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ/ فَتْحِي جُمُعَة....حَفِظَهُ اللهُ.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين وبعد،،،

فهذه (باقة) طيبة جمعها –من أعطاف الحياة وأرجاء العيش- ابننا المجتهد الواعد الأستاذ عماد أبو العينين مستوعبًا في جمعه طائفة غير قليلة من المشكلات والقضايا التي تموج بها المجتمعات الإسلامية كافة.

وأغلب الظن أن هذه الباقة في مبدئها لديه- ما كانت لا خواطر خطرت أو أفكارًا سنحت في مسائل أهمّته أو مشكلات شغلته كما شغلت أمثاله من شباب الإسلام المحبين لدينهم والغيورين عليه الذين يستيقنون بأن دواء الأدواء الكثيرة ودرء المفاسد العديدة التي أسقمت مجتمع المسلمين وأوهنت قواه وشوهت في أعين العالمين صورته لن يكون إلا في الإسلام نفسه؛ استمساكًا به واستمدادًا منه، وتعويلاً عليه.

ومن أجل ذلك عكف ابننا على هذه المسائل وتلك المشكلات حينا من الدهر ينظر ويتأمل ويطيل النظر والتأمل، يستقرئ التاريخ حينًا والواقع الحي حينًا آخر ويستقصي من يستطيع من الأمثلة والنماذج ويقايس ويقارن لينتهي غالبًا أو دائمًا في كل المشكلات أو في أكثرها إلى ما يرى أنه الحق والحقيقة وهو أن الإسلام –عقيدة وشريعة وقيمًا ومبادئ- كان هو سبب القوة والعزة والازدهار في الماضي فينبغي أن يكون هو –وحده لا غير ولا شيء معه- سبب القوة والعزة والازدهار في الحاضر.

وحقًا لقد كان موفقًا في كثير مما كتب كما كان موفقًا في عنوانه الذي استوحى فيه الإمام الجليل ابن الجوزي رحمه الله تعالى واقتفى أثره في كتابه الماتع (صيد الخاطر) غير أن (صيد) عماد أمسك عليه بالفوائد لا الخواطر فلماذا استبدل كاتبنا الواعد (فوائده) بخاطر ابن الجوزي؟.

لعله يقصد أن تتجاوز نظراته حدود الخواطر الخاطرة لتحقيق ثمرتها في الفائدة والإفادة ولا شك أن هذا (طموح) مشروع نرجو أن يجتهد ابننا العزيز ليكون جديرًا به وأهلاً له بإذن الله تعالى.

فتح الله له وعلمه ونفع به وهداه وسدد في طريق العلم والخير خطاه.

وكتبه أبو محمد فتحي بن جمعة

مُقَدِّمَة

إنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ..

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب٧٠-٧١]

أما بعدُ..

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب صيد الفوائد مقالات في الشريعة والحياة وقد كنت وعدت إخواني القُراء به بعد أن حاز الجزء الأول منه قبولاً أثلج الصدور، وأقر العيون.

وقد آليت على نفسي أن أتحدث عن القضايا المعاصرة التي تهم المسلمين بأسلوب بسيط –قدر الاستطاعة- وأقول فيها وجهة نظر الإسلام متوجهًا من فهم السلف الصالح، ودراسة حياتهم وما عاشوه، كلُ ذلك حسب ما تقتضيه الحاجة، فكانت هذه المقالات بحول الله التي تقض مضاجع العلمانية، وتعمل على هدم أركان الدولة التي تُسمى بالدولة المدنية.

فدولتنا هي دولة الإسلام وبلادنا هي بلاد الإسلام، وإن طالت عهود الظلم والظلام، فالإسلام وشريعته ومنهاجه لا بد آتٍ لا محالة بنا أو بغيرنا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد٣٨].

ويوم أن نعمل بما في كتاب الله وسنة رسوله × على علم وبصيرة فإن الخيرات ستعم البلاد ويتغير حالنا مما هو فيه -والذي لا يخفى على أحد-

إلى أحسن حال، عندها وفقط سوف تُغَنِّي لنا الدنيا، ويسمع لنا الدهر.

فالله الله إخواني في شريعة خاتم المرسلين، ودين رب العالمين، التمسك به والعض عليه فهو اللحم والعظم والدم.

وأخيرًا أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يأخذ بأيدينا إلى ما فيه خير البلاد والعباد، إنه على كل شيء قدير وهو نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تنويه لازم: أيها الأخوة الكرام تم نشر هذه المقالات خلال العام ٢٠٠٩م على موقع صيد الفوائد، وقد طُبع بمطابع مكتبة العلياء للنشر بالقاهرة في العام ٢٠١٠، وكذا مطابع مكتبة الإيمان بالمنصورة لذا وجب التنويه أن هذه المقالات تم نشرها قبل ثورة مصر ٢٥ يناير.

عِمَاد حَسَن أَبُو العَيْنَيْنِ

منهاج الاعتدال في تقييم الرجال

إنَّ منهجنا اليومَ في تقييم الرجال يُشبهُ إلى حدٍّ كبير منهج الجاهلية الأولى، فقد كانوا يَزِنُونَ الرجال بموازين شتَّى تنبئ عن معتقداتهم الفاسدة وتصوّراتهم المنحرفة عن الكون والحياة والإنسان، فمن الموازين التي كانوا يَزِنُونَ بها الرجال؛ ميزان المادة والثقل المالي للفرد، فكان صاحب المال عندهم هو المقدم وهو الذي يجب أن يبرز في المجامع والمحافل، وأن تكون كلمته هي العليا، وإن كان لا يملك شيئًا من المؤهلات التي تجعله خليقًا بهذا المنصب أو ذاك، ويرون أن كلمة الفقير هي السُّفلى، ولا يجب أن يُسمع له ألبتة، وإن كان ذا مواهب، ذكيًّا تقيًّا.

فها هم بنو إسرائيل يتعجَّبُون من أن يقودهم فقيرٌ لا يملك شيئًا من متاع الدنيا، وإن كان مؤهلاً للقيادة، وذلك حين طلبوا من نبيهم أن يختار منهم مَلِكًا؛ ليقودهم أمام عدوهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ [البقرة٢٤٦] فاستجاب لهم نبيهم وانتقى من بينهم الصالح لهذه المهمة وهو طالوت فقال: ﴿إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة٢٤٧] ولكنهم تعجبوا من هذا الاصطفاء، إذ ترك نبيهم الأفاضل - من وجهة نظرهم- وكبار الرجال، أصحاب المال الوفير واختار هذا الفقير، فقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة٢٤٧] فأعلمهم نبيهم أن هذا الفقير له من المؤهلات والمواهب ما يجعله خليقًا بهذه المهمة، وليس المال هو الميزان الذي يُوزَنُ به الرجال، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة٢٤٧]

ولقد ألمح المصطفى × إلى هذا المعنى للصحابة، فقد كان يجلس يومًا معهم ومَرَّ أمامه رَجُلٌ فَقَالَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ. فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ،**

وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ×: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»(١).

فالمقياس عند الجُهَّال من الأمم -سواء منهم المسلمة والكافرة- هو كثرة المال، والمعيار الذي يَزِنُونَ به صلاح الرجل أو فساده، وكفاءته أو عجزه، وصدقه أو خيانته هو سعة المال الذي يملكه.

وهناك مقياس آخر من مقاييس الجاهلية وهو مقياس المنصب والجاه والمكانة الاجتماعية، فمن كان بينهم ذا منصب فهو المُقدم وهو المُصدق وهو صاحب الأخلاق الرفيعة كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف٣١]؛ لذا كان حرص النبي × الدَّائم على تغيير هذه المفاهيم الجاهلية في قلوب وسلوك الناس، ليخرجهم من ظلمات هذه التصورات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومنهاجه المعتدل الفعال في تقييم الرجال، فقد جاءه قوم بني سلمة فقال لهم: «**يا بني سلمة من سيدكم؟ قالوا: الجد بن قيس، على بخل فيه. فقال: وأي داء أدوى من البخل! بل سيدكم الأبيض الجعد؛ بشر بن البراء**»(٢).

فبهذا العزل للجد بن قيس، وهذا التثبيت لبشر بن البراء أرسى × قواعد ومنهاج تقييم الرجال، وأنه لا يجوز أبدًا أن يكون سيد القوم ذا صفة ذميمة شرعًا، وطبعًا كالبخل.

والآن ونحن في جاهلية جهلاء نرى رؤسَاءَنا وقادتنا بين صريع للجهل، والبخل والجبن .... وحدِّث ولا حرج؛ ولكنهم هم الشجعان وهم أصحاب العقول النيِّرة وهم أجود من حاتم الطائي!.

ومن عجائب ممارسات المسلمين اليوم في واقع الحياة أنهم -على سبيل المثال- يقدمون في صلاتهم وإمامتهم من لا يحسن قراءة الفاتحة؛ إلا لكونه

---

(١) رواه البخاري ٥٠٩١، ابن ماجة ٤١٢٠.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٩٦/١.

هو الأغنى أو الأعظم جاهًا أو الأكبر سنًّا، وقد تناسوا حديث النبي × ومنهاجه في تقييم المتقدم لهذا المنصب وهو قوله ×: «**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا**»(٣).

كما جعل × تقييمه للمؤذّن أن يكون حسن الصوت، فقد أمر × عبد الله بن زيد أن يلقي الأذان على مسامع بلال وقال: «**فَإِنَّهُ أَنْدَى وَأَمَدُّ صَوْتًا مِنْكَ**»(٤) فهو الجدير بهذه المهمة، في حين تُصر وزارة الأوقاف على تعيين الغِرْبَان للأذان.

وهناك معيار آخر من معايير الجاهلية وهو أقل وطأة من سابقيه ألا وهو معيار السنّ، فقد كان الكبير في السنِّ عندهم هو المبرَّز والمقدَّم وإن كان جاهلاً لا يحسن الرأي، أو على أقل تقدير ذا كفاءة محدودة، فقام النبي × بإبطال هذا المعيار ببعثه أسامة بن زيد بن حارثة وهو ابن ستة عشر ربيعًا أميرًا على جيش فيه أبو بكر وعمر الأكبر قدرًا وسنًّا، ولكنه كما قال ×: «.. **وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ كَانَ خَلِيقًا لِلإِمَارَةِ..**»(٥)، فهو على صغر سنه يُجِيدُ فنون القيادة والإمارة أكثر من غيره الأكبر سنًّا، فلا يُعدم هذا المنصب من أجل عادات وتقاليد الجاهلية.

ولما كانت هذه هي معايير الجاهلية في تقييم الرجال كثر الظلم وقل العدل أو انعدم إلا بقايا هنا أو هناك لا تُرى ولا يُسمع حَسِيسهَا، ولما جاء الإسلام أقام العدل في وزن الرجال، وسعى × بكل سبيل إلى دروس موازين الجاهلية وإفنائها لإحياء المنهج الإسلامي.

فكان × يحدث صحابته عن القوم الجاهلين في كل زمان ومكان، وأنهم يصفون الرجل بصفات ويزنونه بموازين ليست من الإسلام في شيء

---

(٣) رواه مسلم ٦٧٣، أبو داود ٥٨٢، الترمذي ٢٣٥، النسائي ٧٨٠، ابن ماجة ٩٨٠.

(٤) رواه مسلم ٦٧٣، أبو داود ٥٨٢، الترمذي ٢٣٥، النسائي ٧٨٠، ابن ماجة ٩٨٠.

(٥) رواه البخاري ٤٢٥٠، مسلم ٢٤٢٦، الترمذي ٣٨١٦.

فيقولون: «.... مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»(٦).

وعلى هذا كان اختيار القوم الجاهلين لقادتهم وممثليهم والقائمين على شئونهم يشوبه الزيف والضعف والتصورات الخاطئة؛ لعدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب فتشتت البلاد وضاعت مصالح العباد، وإذا كان هذا في أمة الإسلام فالساعة قريب، قال ×: «إِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ. قَالَوا: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ»(٧).

هذا؛ وناهيك عما يحدث في مثل هذا المجتمع من أحكام مخالفة لشرع الله، ومحاباة للقوي على حساب الضعيف، وهذا الذي حذر منه النبي × فقال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»(٨).

فموازين الجاهلية تؤدي في نهاية الأمر إلى هلاك العباد وفوضى البلاد، وهذا ما حدث في أكثر بقاع الأرض التي لا تُحكِّمُ شريعة الله ولا تعمل بمنهاج الإسلام.

ولننظر إلى منهاج الإسلام في تقييم الرجال، فقد أبدع الإسلام طرقًا شتى لتقييم الرجال، فقال ×: «أحب الناس إلى الله أنفعهم وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينًا

(٦) رواه البخاري ٦٤٩٧، مسلم ١٤٣، الترمذي ٢١٧٩، ابن ماجة ٤٠٥٣.

(٧) رواه البخاري ٥٩.

(٨) رواه البخاري ٣٤٧٥، مسلم ١٦٨٨، أبو داود ٤٣٧٣، الترمذي ١٤٣٠، النسائي ٤٨٩٥، ابن ماجة ٢٥٤٧.

أو تطرد عنه جُوعًا ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل» (٩).

فلم يقل النبي × : خير الناس كثير المال أو صاحب الجاه أو الكبير سنًّا كما تفعل الجاهلية في كل زمان ومكان، بل جعل المدار هنا على صلاح الفرد في نفسه بالتقوى والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، ونفعه لغيره من العباد وتقديم الخير للمجتمع الإسلامي.

هذا بصفة عامة، ويمكن أن نتحدث بصفة خاصة عن ثلاث فئات بالمجتمع المسلم وهم؛ الأولى: العلماء، والثانية: الأمراء أو الحكام، والثالثة: العمال أو أصحاب المهن المختلفة في الدولة.

فلقد وضع الإسلام ضوابط ومعايير كلية للحكم على كل فئة من هذه الفئات، كما وضع تقييمًا شاملاً لها، فمن ثقلت موازينه فيها فيصدق عليه في الأولى أن نقول:" إنه من علماء الإسلام، وفي الثانية أن نقول: إنه من حكام الإسلام، وفي الثالثة أن نقول: إنه من العاملين بإخلاص في دولة الإسلام، وذلك لخطر موقع الفئات الثلاث في المجتمع المسلم.

وهاكم بعضًا من هذه المعايير:

الفئة الأولى: لا بد أن يكونوا علماء عاملين ربانيين زاهدين في متاع الدنيا وزينتها، أصحاب فهم ثاقب، ونظرة متأنية بعيدة للأمور، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يخشون إلا الله، ولا يكتمون العلم من أجل حاكم ظالم أو محكوم جاهل، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران٧٩] وقال محذرًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ

(٩) الصحيحة ٤٢٧.

يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة١٥٩] وقال أيضًا: ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران١٨٧].

وجعل من أعرض عن هذا المنهاج ليس له وزن عنده جل شأنه فقال ×: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»(١٠).

قال أيوب السختياني: «لا خبيث أخبث من قارئ فاجر»(١١).

وقال أبو حازم؛ سلمة بن دينار: «إن شر العلماء من أحب الأمراء»(١٢).

وقد وجد في أمة الإسلام علماء أعرضوا عن هذا المنهج وباعوه بثمن بخس من أمثال عتاب بن إبراهيم المحدث الذي اشتهر عنه أنه نافق الخليفة المهدي وكذب على رسول الله ×؛ فقد كان المهدي يحب اللعب بالحمام والسباق بينها فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن إبراهيم فحدثه بحديث أبي هريرة: «**لا سَبَقَ إِلاَّ فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ**» (١٣)، وزاد الحديث أو جناح فأمر له المهدي بعشرة آلاف ولما خرج قال: والله إني أعلم أن عتابًا كذب على رسول الله ×، ثم أمر بالحمام فذبحه ولم يذكر عتابًا بعدها.(١٤)

---

(١٠) رواه مسلم ١٩٠٥، الترمذي ٢٣٨٢، النسائي ٣١٣٧.

(١١) سير النبلاء ١٧/٦.

(١٢) سير النبلاء ١٠١/٦.

(١٣) أبو داود ٢٥٧٤، الترمذي ١٧٠٠، ابن ماجة ٢٨٧٨، إرواء الغليل ١٥٠٦.

(١٤) البداية والنهاية لابن كثير ١٥٧/١٠.

وانطفأ ذكر عتاب بن إبراهيم ذلك المحدث في تاريخ الأمة، ورفع الله ذكر أحمد بن حنبل إمام أهل السُّنَّة؛ إذ وقف وحده في وجه الدولة العباسية والخليفة المأمون في فتنة خلق القرآن.

وهكذا كان تقييم العلماء في دين الإسلام، فإذا وُجد بيننا صاحب علم غزير ولكنه لا يخشى الله فليس بعالم، أو كتم علمًا فليس بعالم، أو لهث خلف متاع الدنيا فليس بعالم على وجه الحقيقة.

الفئة الثانية: لا بد أن يكون الحاكم أو الأمير أو الإمام مطبقًا لشرع الله في الأرض حاكمًا بالعدل بين الرعية، فيكون مع رعيته كالأب الحاني على ولده، وكالأم الشفيقة البرّة الرّفيقة بولدها، وصيّ اليتامى، وخازن المساكين، قوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمن خائفهم، فهو القائم بين الله وبين عباده؛ يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، كل ذلك بشريعة الله التي نزلت على خير العباد؛ محمد بن عبد الله، فلا يكون كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله؛ فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله(١٥)

قال ×: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ**» (١٦).

ولا بد أن يكون موقفه واضحًا من أعداء الإسلام فلا يتخذهم أولياء بل يعمل لصالح المسلمين إن كان بهم ضعف، ويذل أعداء الله بالجهاد إن كانت بالمسلمين قوة؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة٥١].

---

(١٥) وصية الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز، بتصرف شديد العقد الفريد لابن عبد ربه ٢٥/١.

(١٦) رواه البخاري ٧١٥٠، مسلم ١٤٢.

ولا بد أن يكون مُحبًّا للعلماء كارهًا لأهل الفساد والمجون.

قال أبو حازم سلمة بن دينار: «إن خير الأمراء من أحب العلماء»[١٧].

ولكن الملاحظ الآن أن حكام المسلمين -إلا من رحم الله- يعملون لغير مصالح المسلمين، أشدَّاء عليهم رحَمَاء مع أعدائِهم يسالمونهم، ويخشونهم كخشية الله أو أشد خشية، ومثلهم في ذلك كما قال الأول:

أَسَدٌ عَليّ وَفِي الحُروبِ نَعامَةٌ فَتخاءُ تَنفر مِن صَفير الصافِرِ

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقيم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي قام باستيراد النظم الاشتراكية الشيوعية المخالفة صراحة للقرآن والسنة، ولكنه عندما دغدغ مشاعر العامة بقانون الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي على الناس انصاع الشعب لأمره ونهيه وأغمض عينيه عن هذه النظم، ولكنَّ الإسلام هو الإسلام.

ونستطيع أيضًا أن نقيم الرئيس العراقي صدام حسين الذي خالف القرآن والسنة وأنشأ حزب البعث المناهض للإسلام والمسلمين وحارب إخوانه الأكراد والكويتيين وأضاع ثروات الأمة في حربه على الشيعة بأمر أمريكا لا خدمة للإسلام، وقد فتنت به العامة وقالوا إنه شهيد، وهو عندنا شهيد العمالة والخيانة للأمة!. وغاية أسفنا للأمر أن ما حدث له كان يستأهله ولكن كان يجب أن يكون بأيدينا لا بيد عمرو.

ولكي نكون واقعيين فإننا لا نطمع في حاكم كعمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز؛ فالأمر كما قال ابن الحطيئة اللخمي: أدرجت سعادة الإسلام في أكفان عمر بن الخطاب[١٨]، ولكننا نطمع في ثلث عمر بن الخطاب والثلث كثير.

فهذه الأوصاف سالفة الذكر للأمراء هي بعضٌ من المعايير التي وضعها الإسلام للتمييز بين حاكم الإسلام وحاكم الجاهلية، فمن وجدت فيه هذه الصفات فهو بحق جدير بوصف (أمير المؤمنين) ومن لا فليس حاكمًا

---

(١٧) سير النبلاء ١٠١/٦.

(١٨) راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان.

للدولة الإسلامية على وجه الحقيقة، ولا يلومنَّ إلا نفسه!.

الفئة الثالثة: لا بد أن يتوافر فيهم شرْطَان أساسيَّان: أولهما أن يكون خبيرًا في العمل المكلَّف به. والثاني: أن يكون أمينًا. والأولى صفة مكتسبة بالتجارب والمران، والثانية صفة ذاتيَّة، وجلاء هذه الصفات يتمثل في قول ابنة الشيخ الكبير صاحب مَدْيَن لِمُوسَى عليه السَّلام: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص٢٦] فالقوَّة على الأداء والتمكُّن منه هي بعينها الخبرة وهي الصِّفة المكتسبة، والأمانة من الصِّفات الذاتيَّة والتي تنبع من روح الإنسان وتديُّنه.

وقال ×: «**مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَغَشَّهُمْ فَهُوَ فِي النَّارِ**»(١٩).

فمن وُجد بيننا يحمل الشهادات العليا كالدكتوراه مثلا في أي مجال وليس خبيرًا في عمله بل غاية أمره شهادات وترقية فليس من العاملين بإخلاص لدولة الإسلام، ومن وجد بيننا خبيرًا في عمله متقنًا إياه وليس أمينًا فلا يصدق عليه قولنا: إنه من العاملين بإخلاص لدولة الإسلام، وهذه الأوصاف تصدق على كثير من وزرائنا، فإنهم بين خبير غير أمين، وأمين غير خبير.

أيها الإخوة الكرام: هذه بعضٌ من معالم الإسلام في تقييم الرجال الذين يعتمد عليهم في إقامة دولته فإن وجدوا بيننا فإن نصر الله قريب، وإن عزوا فإن الذل والمهانة على من خالف أمره، وتبع شرعًا غير شرعه ومنهاجًا غير منهاجه.

---

(١٩) صحيح الترغيب والترهيب ٢٢٠٦.

الصِّفَات الجَلِيَّة لِوُلاةِ الدَّوْلَة الإِسْلامِيَّة

كان اختيار النَّبِـيّ × للعاملين له على الولايات اختيارًا دقيقًا، فالملاحظ في عُمَّالِهِ أنه كانت تتوافر فيهم بعض الشروط؛ أهمها شرْطَان أساسيَّان:

أولهما: أن يكون خبيرًا في العمل المكلَّف به.

والثاني: أن يكون أمينًا.

والأولى صفة مكتسبة بالتجارب والمران، والثانية صفة ذاتيَّة، دون نظر إلى صلة أو قرابة أو نسب، وقد ظهر ذلك جليًّا في أعوانه من النُّقَبَاء والكُتَّاب في إدارة شئُون الدّولة الإسلاميَّة في عهدها النَّبوي.

وكان فهم النَّبِـيّ × نابعًا من التوجيهات الرّبانيَّة في القرآن الكريم من مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة٢٤٧] والعِلْمُ من الصّفات المكتسبة، والجسم من الصِّفات الذاتيَّة، وهذا يعني القدرة على القيام بهذه المهمة من الناحية الفنيَّة، ومن ناحية الأمانة والخلق فيكفي اختيار الله له.

والجلاء والوضوح الأكبر لهذه الصفات كان في قول ابنة الشيخ الكبير صاحب مَدْيَن لِمُوسَى عليه السَّلام: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[القصص٢٦] فالقوَّة على الأداء والتمكُّن منه هي بعينها الخبرة وهي الصِّفة المكتسبة، والأمانة من الصِّفات الذاتيَّة والتي تنبع من روح الإنسان وتديُّنه.

وكذا قول عزيز مصر ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف٥٤] وقال تعالى في صفة جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير ١٩:٢١].

وعلى هذا النّحو كان اختيار النَّبِـيّ × لعُمَّالِهِ، فكان يستعمل خالد بن الوليد على الحرب، منذ أسلم، وقال: "إنَّ خالدًا سيفٌ سلَّهُ الله على

المشركين" وكان أبو ذر رضي الله عنه، أصلح منه في الأمانة والصدق، فقد قال × : «**مَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ وَلا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ**»(٢٠) لكنَّ أبا ذر لم يستكمل شرطي الولاية فمعه شرطٌ واحدٌ وهو الأمانة، ومع خالد شرْطَان: الأمانة والكفاءة في الحرب؛ وإن كانت أمانة خالد أقل من أمانة أبي ذر، إلا إنه أكفأ منه، فقد قال ×: «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**»(٢١).

فكان × يتخير عماله بدقة متناهية لدرجة أن الواحد منهم كان يخاف من غضب النَّبِيّ × أو وجده عليه، فعَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: «سِرْتُ مَعَ مُصَدِّقِ النَّبِيِّ × فَعَمَدَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَدِّقِينَ إِلَى نَاقَةٍ كَوْمَاءَ -عَظِيمَةُ السَّنَامِ- قَالَ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا قَالَ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْخُذَ خَيْرَ إِبِلِي قَالَ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا قَالَ فَخَطَمَ لَهُ أُخْرَى دُونَهَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ثُمَّ خَطَمَ لَهُ أُخْرَى دُونَهَا فَقَبِلَهَا وَقَالَ إِنِّي آخِذُهَا وَأَخَافُ أَنْ يَجِدَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ × يَقُولُ لِي عَمَدْتَ إِلَى رَجُلٍ فَتَخَيَّرْتَ عَلَيْهِ إِبِلَهُ»(٢٢)

وكان قد نهاهم النَّبِيّ × عن أن يأخذوا كرائم أموال الناس.

وعندما كان يحيد أحدهم عما كُلِّف به كان عتاب النَّبِيّ له، بل زجره في بعض الأحيان، ففي يومٍ أرسل × أحد صحابته عاملاً على الصَّدقة فجاء حين فرغ من عمله فقال: يا رسول الله هذا لكم وهذا أُهْدِيَ لي، فما كان من رسول الله × إلا أن صعد المنبر عشيَّةً بعد الصَّلاة وقال: «**أَمَّا بَعْدُ فَمَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي فَهَلاَّ قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ....**» (٢٣).

---

(٢٠) رواه الترمذي ٣٨٠١، ابن ماجة ١٥٦.

(٢١) رواه مسلم ١٨٢٦.

(٢٢) رواه أبو داود ١٥٧٩، النسائي ٢٤٥٧، ابن ماجة ١٨٠١.

(٢٣) رواه البخاري ٦٦٣٦، مسلم ١٨٣٢، أبو داود ٢٩٤٦.

فهذا العامل من صحابته الكرام، وقد توافرت فيه الصّفات الذاتيّة والمكتسبة من الأمانة والكفاءة؛ ولكنه حاد عن الطريق الصحيح لبعض الأطماع الزائلة، وقد يكبوا الجواد وينبوا السيف ولكنَّ سيف رسول الله × أحَدُّ وأقطَعُ في الوقت المناسب!.

بمثل هؤلاء الولاة صلحت دولة النَّبِيّ × واستقرَّت على قواعد متينة وأسس راسخة، وقد ألمح اللَّيث بن سعد المصري إلى أن صلاح البلاد بصلاح الوالي، حين سأله الرشيد فقال: ما صلاح بلدكم؟ قال: بصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإن صفت العين، صفت السواقي. قال الرشيد: صدقت. (٢٤)

وقد سار أبو بكر الصّديق رضي الله عنه الخليفة الراشد على سيرة الرسول ×، فتولى بنفسه تعيين الولاة والعُمَّال، وإن ترك لهم اختيار القضاة، ثم وسع سلطات قادته في العراق والشام، وأوكل إليهم تولية عمالهم، وما زال يستعمل خالدًا في حرب أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام.

ولم يخالف الخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه سيرة الرسول ×، فقد اتخذ الكفاية للعمل ولخدمة الرعية أساسًا للتعيين، فالعامل يجب أن يكون كُفؤًا، قويًّا، مهابًا، أمينًا، وكان شديد المراقبة لعماله وولاته، ومن أمانة ولاته أنه لما أرسل سعدٌ الخُمُسُ من غنيمة كسرى إليه في المدينة وكان فيها لباس كسرى فنظر عمر إليها ثم قال: إنَّ قومًا أدّوا هذا لأُمَنَاء.

وقد تنبه رضي الله عنه لأمرٍ خطيرٍ وهو أنَّه قد يوجد الكُفء ولكنه لا يكون أمينًا، وقد يوجد الأمين ولكنه لا يكون كُفؤًا، فقال رضي الله عنه في عبارة بليغة: (اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثِّقة)، فاجتماع القوَّة والأمانة في النَّاس قليل، لهذا كان رضي الله عنه يسأل عنهم ويتفقد أحوالهم، فقد روى الذهبي: أن عمر سأل جريرًا عن عمار فقال: هو غير كاف ولا عالم بالسياسة(٢٥).

وكان يعزل من يراه داهية ويخشى على الناس منه، فإنه لما عزل

(٢٤) سير النبلاء ١٥٨/٨.

(٢٥) سير النبلاء ٤٢٣/١.

المغيرة بن شعبة عن كتابة أبي موسى قال له: أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين (هذان الصفتان المقابلتان لصفتا القوة والأمانة) قال: لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة[٢٦].

وبناءً على هذا يجب على القائمين على مصالح المسلمين من الحكام والقادة والرؤساء أن يتخلّوا عن النَّهج الذي يُعمل به في شئون البلاد وفي المصالح الحكوميَّة من تولية واستعمال الأكبر سنًّا أو القريب أو النَّسيب أو صاحب الجاه أو غيرها من الاعتبارات التي لا تعود على المسلمين بالنَّفع، ناهيك عن المبالغ الطائلة التي قد يحصل عليها إذا كان في منصب رئيس الشركة أو الهيئة أو المنظمة والتي ليس لها مسوغ البتة، ولا تتناسب مع رواتب العاملين فقد تصل إلى ما يوازي راتب ألفي عامل من العاملين بالهيئة نفسها! [٢٧].

فهذا وأمثاله يُعَدُّ خيانة وغشًّا للمسلمين سوف يُسأل عنها بين يدي الله عز وجل، فقد قال النَّبيّ ×: «**مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَغَشَّهُمْ فَهُوَ فِي النَّارِ**»[٢٨]

وقال ×: «**إِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ**»[٢٩]

ومن مظاهر توسيد الأمور إلى غير أهلها؛ ما يحدث في بعض بلاد المسلمين من طلب الرياسة والانتخاب للمجالس النيابية من قِبل الجهلة بالدين والسياسة والاقتصاد، وغيرها من المرجعيَّات التي لا بُدَّ أن تتوافر لشخصيَّة ستتكلم في أمر العامة.

---

(٢٦) العقد الفريد لابن عبد الربه.

(٢٧) في اليابان التي يتغنون بذكرها لا يتعدى الفرق بين أعلى وأقل راتب بالدولة الثلاثون بالمئة!.

(٢٨) صحيح الترغيب والترهيب ٢٢٠٦.

(٢٩) رواه البخاري ٥٩.

بالإضافة إلى مخالفته الصريحة لقول النَّبِيّ ×: «**إِنَّا وَاللَّهِ لاَ نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلاَ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**»(٣٠).

وقوله × لعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ: «**لا تَسْأَلْ الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»(٣١).

ومع مخالفة المجالس النيابية لمنهاج الدولة الإسلامية -من حيث المبدأ- فإنك تجد العجب العجاب من إعلان السَّوقة في المجتمع عن أنفسهم طالبين من العامَّة انتخابهم لهذه المجالس بدعوى أنَّهم قادرُون على الدُّخول في غمار السياسة والاقتصاد وتسيير دفَّة الأمور بالبلاد، وبعد أن كنا نرى رجلين أو عدة رجال لا يتجوز عددهم أصابع اليد الواحدة يتنافسون على مقاعد المجالس النيابية في دائرة من الدوائر نجد الآن عددهم يتجاوز الخمسمئة حتى أصبح هذا الأمر صراعًا متأججًا بين الناس، وغرقت البلاد في الوحل من جراء تعدِّي هؤلاء الجهلة على أمر ليسُوا له بأهل، ورضا وليِّ الأمر بالمنظومة (الديمقراطية) المخالفة للكتاب والسنة، ومنهاج الدولة الإسلاميَّة القائم على الشُّورى.

ولكن ابن كثير -رحمه الله- يُهدئ من روعنا ويُلخص لنا الموقف قائلاً: "الناس على دين مليكهم، إن كان خَمَّارًا كثر الخمر. وإن كان لُوطيًّا فكذلك، وإن كان شحيحًا حريصًا كان الناس كذلك، وإن كان جوادًا كريمًا شجاعًا كان الناس كذلك، وإن كان طمَّاعًا ظلومًا غشومًا فكذلك، وإن كان ذا دين وتقوى وبرٍّ وإحسان كان الناس كذلك، وهذا يوجد في بعض الأزمان وبعض الأشخاص".(٣٢)

فنفهم من ذلك أنه إن كان جاهلاً، كان طالبو الرياسة من الجهلاء، وإن كان عميلاً منافقًا، كثر العملاء والمنافقون في البلاد، وإن كان محبًّا لشرع غير شرع الله، زهد الناس في دين الله.

---

(٣٠) رواه البخاري ٤٣٤٥، مسلم ١٧٣٣، أبو داود ٤٣٥٤، النسائي ٤٠٦٦.

(٣١) رواه البخاري ٦٦٢٢، مسلم ١٦٥٢، أبو داود ٢٩٢٩، الترمذي ١٥٢٩، النسائي ٣٧٨٢.

(٣٢) البداية والنهاية ١٧٢/٩، بتصرف.

فلا يسعنا في وصف فوضى الانتخابات وفوضى تصدر الجهلاء والدَّهماء والعمياء وفوضى الحكم بغير ما أنزل الله إلا أن نقول: (حشفًا وسوء كيلة!).

وعلى هذا نرى أن دعاء الناس: (اللهم ولي من يُصلح) لن يكون له أثرٌ في حياتنا طالما أن من نوليه يكون وفقًا لمعايير مخالفة للكتاب والسنة، ونرى أن مطالب الجماهير من العلماء برفع راية الجهاد لتحرير فلسطين والتي ظهر آخرها في حرب إسرائيل على غزة حيث حمَّل أناس كثير العلماء مسئولية ما يتعرض له إخواننا في غزة، نرى أن هذا من الظلم بمكان، فإن العلماء لا يملكون دولة أو جيشًا، بل قد يكونوا مُحَارَبين في بلادهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العلماء عندما يطالبون بإقامة دولة على منهاج الإسلام ترى كثيرًا من الناس يرفضون ذلك رفضًا قاطعًا ويفضلون العلمانيين على الإسلاميين فأنى لهم استجابة دعاء!

منهاج السُّنة في النهوض بحياة الأمة

إنَّ الإنسانَ الذي يعيشُ بلا هدفٍ في الحياة، أو يكون هدفُه هو الطَّعام والشَّراب فحسب لابُدَّ أن يموت بلا ذِكْرٍ، ويمرّ مرُورَ الكرام من بوابة التّاريخ الخلفيَّة، بل قد لا يَمُرّ أصلاً ويعد من سقط المتاع، كذا الأمَّة التي تعيش بلا هدف في الحياة لا يحق لها أن تعيش في دنيا البشر ولا بُدَّ أن تسقط من ذاكرة التاريخ.

والعجيب أن تجد لكل أمَّة من الأمم الكافرة هدف وأهداف ومشروع ومشاريع تسعى من أجلها وتسهر على تحقيقها، وتجعل أمتها كلها مُنساقة لتحقيق هذه الأهداف وتلك المخططات، والأعجب من ذلك أن ليس للمسلمين مشروع أبدًا!.

وقد تقوم دولة لتسيطر على العالم وتحكم فيه بما تشاء من دينها وأهوائها وتسقط أخرى، تسقط روسيا وتقوم أميركا، وتسقط أمريكا وتقوم الصين، وتسقط الصين وتقوم غيرها وليس للمسلمين نصيب في القيام، وهذا ما نأسف له ونَمُوت كمدًا من أجل عدم تحقيقه في حياتنا الدنيا، فقد خسر العالم أجمع بانحطاط المسلمين والتخلي عن دورهم في قيادة العالم.

إن الأمة الإسلامية أمة كبيرة في مبادئها وأفكارها وتصوراتها وأهدافها فمن ذلك أننا نود أن نحكم العالم ونقيم العدل في الدنيا؛ ولكن كيف لنا وإخواننا الذين يتصدرون سدة الحكم لا يعملون على هذه الأهداف بل يعملون على تخدير وعي الأمة.

نريد أن نفرض الاختيارات الثلاثة على العالم؛ إما الإسلام أو الجزية أو الحرب، ولكن كيف ونحن أذلاء لا نملك قوت يومنا تحكمنا عصابة لا تهتم إلا بمصالحها الشخصية ولا تهتم بمصالح الأمة؛ في حين أن الكفّار تجمَّعوا علينا من كل حدب وصوب، وأوصى بعضهم بعضًا لتدميرنا؛ فالأب بوش يوصى ابنه بتدمير العالم الإسلامي، وحين تهيأت الفرصة لبوش الابن فعل.

فهلاَّ كان الجهاد في سبيل الله هو مشروعنا الذي نسعى من أجله، وهو مخططنا الذي نوجه طاقة أمتنا وشبابنا لتحقيقه، ولكن لماذا الجهاد؟

أقول: لأنه عندما بُعث النبي × لم يقل بعثت لقريش؛ إنما قال: بعثت للثَّقَلين الإنس والجن، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا﴾

[النساء٧٩] وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ٢٨] ومات × وهو مجهزٌ لجيش أسامة بن زيد وقد أمر أبا بكر بإنفاذه وهو × على فراش الموت، فالجهاد في سبيل الله كانت طريقته ومنهجه الذي ينشر به دعوته.

ونحن مأمورون من بعده أن نوصل صوته إلى الدنيا بأسرها، ليس فقط بالقلم والخطابة والمجادلة بالتي هي أحسن، بل لا بُدَّ أيضًا أن تكون بالسيف.

وَإِنَّ النَّدى إِن لَم يَكُن يَدفَعُ الأَذى يَكُن وَضعُ حَدِّ السَيفِ في الأَمرِ أَحزَما

ويعِزُّ عليَّ وأنا واحد من المسلمين أن أرى إخواني المسلمين وقد تنكبوا منهج رسول الله × الذي قال وهو على فراش الموت: عليكم بسُنَّتِي، ومن سنَّته × جهاد أعداء الله بكل شيء ومن هذا الجهاد جهادهم بالسيف.

ولعظم أجره وخطره في ميزان الإسلام فالنبي × وهو من هو يقول: «**انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لا يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ**» (٣٣).

فرسول الله × يتمنى أن يقتل في سبيل الله ثم يحيَا ثم يقتل ثم يحيا ثم يقتل، وهذا من عظم أجر الشهيد وجلالة عمله في الإسلام.

وقَالَ ×: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» (٣٤).

---

(٣٣) رواه البخاري ٣٦، مسلم ١٨٧٦، النسائي ٣١٢٢، ابن ماجة ٢٧٥٣.

(٣٤) رواه أحمد ٥٠٩٣، صحيح الجامع ٢٨٣١.

فالجهاد حفظ لبيضة المسلمين من أخطار عدوهم، وإرهاب لأعداء الله الذين يحيطون بالأمَّة من كلّ حدب وصوب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال٦٠]

والجديد في هذه الرؤية أن يكون الجهاد من أجل مسايرة النظرة المادية التي يعيشها المجتمع الدولي الآن، فأنا أدع المسلمين وهم في غَمٍّ وهَمٍّ وضيق أرْزَاقٍ وليسوا بالأحياء وليسوا بالأموات، أدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله من أجل الحياة المادية.

فالناظر إلى حياة المصريين مثلاً يجدهم في ضيق أرزاق في بلادهم ما جعلهم يخدمون شعوب العالم أجمع؛ بدايةً من دول الخليج مرورًا باليونان وإيطاليا وانتهاء بكندا وأمريكا، ويجنون فتات أرزاق العالم ويأتون بها إلى بلادهم؛ ليتسلط عليها الخونة الذين يحكمون بلادهم، فيعيدون الكرَّة مرة أخري لتلك البلاد، فالخونة لا يشبعون، والخدم لا يرتاحون!.

وأنا أقول لهم: هل لكم في خيري الدنيا والآخرة، يكون لكل واحد منكم منزل كبير (فيلا) تحيط به حديقة كبيرة غير ملاصق لجار، عنده خدم يقومون على شئون منزله وعنده سيَّارات له ولأولاده، وله أرصدة مالية في البنوك، وله حقولٌ زراعيَّة، وعنده وعنده ... وهذا تصوُّر الإسلام لبيت المسلم وحياته غنًى ورفاهية، ولكن بعد جهد قد يطول أو يقصر بالجهاد في سبيل الله وإدخال النَّاس في دين الله أفواجًا، فقد مات النبي × قبل أن يدرك خيرات الدنيا؛ ولكنه تنبأ للمسلمين بهذا الخير العظيم، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إِنَّ النَّبِيَّ × جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَقَالَ: «**إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا**» (٣٥).

(٣٥) رواه البخاري ١٣٦٥، مسلم ١٠٥٢، النسائي ٢٥٨١، ابن ماجة ٣٩٩٥.

فانفتاح زهرة الدنيا على المسلمين أمرٌ واردٌ لا شكّ فيه باتّباعهم لسنة نبيّهم × في الجهاد في سبيله، أما خوفه علينا من الغنى فهذا أمر آخر يعالج بتقوى الله.

وعلى هذا فأنا أدعو القائد المسلم الذي يفتح الله على يديه بتوحيد الأمة على قلب رجل واحد أن يسخرها للجهاد في سبيل الله، عند ذلك ستنشغل الأمة بشيء ذا قيمة وتنتهي عن حياة الجاهلية التي تعيشها الآن، وتنتهي عن الرقص والغناء وتنتهي عن الربا وعن سفاسف الأُمُور، ويكون لها مشروع تسعى من أجل تحقيقه.

وكثير من أذكياء العالم دعوا أممهم للسيطرة على العالم من خلال النظرة المادية وطمعهم في الدنيا؛ فهذا هتلر يدعو أمته الألمانية إلى السيطرة على العالم من خلال تطميعهم في الخير الذي عند غيرهم، والموارد التي يملكونها، وشتّان بين نظرة المسلم ونظرة الكافر، فإن كنّا الآن نطمعهم في الخيرات فهذا من حقّنا لأنّ الأمم التي نريد محاربتها، هي التي احتلّت بلاد المسلمين بالأمس القريب وسلبت خيراته وتحكمت في مقدراته، ثم إنّ المسلم سرعان ما تتغيّر نيّته ويعود يجاهد من أجل رفعة كلمة الإسلام: (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وقد دعا الإسلام إلى مثل هذا الترغيب والتطميع في الدنيا، فقد قال العلماء: للقائد المسلم أن يرغب الناس في الجهاد ويقول لهم: من قتل فلانًا فله سلبه.

إذا تقرر هذا، فكيف نجاهد أعداء الله وحال الضعف كما نرى وحالهم من القوة ما لا يخفى؟!

أوَّلاً: لابُدَّ أن يتملك زمام الحكم في البلاد رجلٌ يضع الإسلام هدفًا أمامه، فالناظر إلى تجربة تركيا على يد رئيس الوزراء أردوغان الموفّق، وسلفه أربيكان الذي لم يوفَّق في حكم البلاد، يرى أن أربكان كان يضع الإسلام في قلبه ويتحرك به، بينما أردوغان يضع الإسلام أمامه ويتحرك إليه في خطًى ثابتة، فهو يتلاعب بالكفار ويسير معهم مراوغًا حتى يتملك زمام الأمور في البلاد، وهكذا يجب أن يكون القائد المسلم في البلاد العربية، حتى يصل إلى الحكم بما أنزل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما أن يكون رئيسنا ليس له هدف إلا وقف الزيادة السكانية التي تسعى إلى زيادتها حكومات وشعوب العالم أجمع ويتباهون بها ويعدونها موردًا هامًا من موارد الدولة ويسمونها بالثروة البشرية، فهذا ما نأسف له.

ثانيًا: رفع القضاء والتّعليم في بؤرة الشعور لدى الدولة والشعب، فالرئيس الفرنسي ديجول عندما تسلم زمام الحكم في البلاد الفرنسية سأل عن اثنين لا ثالث لهما في المقام الأول؛ سأل عن التعليم كيف هو، وهل يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل ويرقى بالمجتمع وثقافته أم لا، فالمعلوم أن الشعوب المثقفة تحب العمل والجد والبناء والتعمير، وسأل عن القضاء هل هو عادل أم لا، فالمعلوم أن الدولة العادلة تزدهر وإن كانت كافرة، والدولة الظالمة تسقط وإن كانت مسلمة سنة الله في الأرض.

والناظر إلى أحوالنا يجد أن (الماجستيرهات) و(الدكتورهات) كثرت في الأمة دون مبرر أو فائدة تعود على البلاد من ورائها، وأصبحت مظهرًا للحكم على الناس، فكم من أعمال جليلة قام بها أناس لم يحصلوا على الدكتوراه ولكنها ضاعت ولم تلق قبولاً لأن الذي يقيمها يُقَيم مؤهلات صاحبها أولاً، حتى ترك الناس الجوهر وهو التفوق والإبداع في أي مكان كان صاحبه لخدمة مجتمعه، واتجهوا إلى تلميع الصورة فحسب وهو الحصول على (الدكتورهات) حتى أصبحت بلادنا بها أكبر نسبة منهم وليس ثم تقدم أو ازدهار ولم نشارك العالم في اختراعاته ومنجزاته.

أما قضية الظلم في بلادنا فحدث ولا حرج عن المصالح الحكومية والرشاوى التي ملأتها بداية من المحاكم وأقسام الشرطة ووحدات المرور ومجالس المدن وغيرها من المصالح العامة التي جُعلت لخدمة المسلمين فأصبحت بؤرًا للفساد ونهبًا للمسلمين دون رقيب أو رادع للموظفين العموميين.

الثالث: الاهتمام بالصناعة والإنتاج، والتعلم من تجارب الأمم الناجحة كاليابان وكوريا، وألمانيا وغيرها من الأمم، وإبراز علماء الأمة ووضعهم في المقام الأول في البلاد، والإنفاق على البحث العلمي بما يليق به.

فالبيت القويّ يحتاج إلى الإسمنت والحديد أكثر مما يحتاج إلى الزينة والزخرفة، وكذلك الأمة الناهضة تحتاج إلى العباقرة في العلم والصناعة، أكثر مما تحتاج إلى المبرزين في الرقص والرسم والغناء والتصوير.

أما ما تفعله حكومات اليوم من سياسة محاربة المساجد بالمراقص، ومحاربة الزوجات بالمومسات، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة، فهذا مؤذنٌ بالخراب والفوضى.

بعد ذلك إن دعانا داعي الجهاد في سبيل الله نخرج بأمة متعلّمة مثقّفة كلها إيمان ويقين بنصر الله، كلها حب لنشر الخير في ربوع الدنيا، كلها أمل في تعمير الدنيا وخلافتها، كلها شوق إلى أسلمة العالم أو حكمه والسيطرة على البقيّة الكافرة فيه.

ولكن بما نبدأ؟ أقول إن البداية يمكن أن تكون بتحرير أرض فلسطين، وهذا حق تقره كثير من دول العالم، ولن يُلفت الانتباه إلى استعداداتنا، حتى إذا قضينا على العدو الأكبر وهم اليهود توجهنا إلى النصارى، وفي الأخير نعود على الأمم المشركة.

هكذا يكون للمسلمين هدف في الحياة، ويسيرون على منهاج رسول الله فينالون السعادة في الدنيا والآخرة.

الكَلِمُ الطيّبُ مِنَ الوابِلِ الصّيّبِ

إن الذي يعرف أثر الكلمة وخطورتها، يحتاط لها وينزلها منزلتها التي تليق بها، فالله تعالى خلق الكون بكلمة، ورفع السموات بكلمة، وبالكلمة كان آدم، وبالكلمة نحيا وبالكلمة ندين، وبالكلمة يُرفع الميزان بين الناس يوم القيامة.

وبكلمة يدخل العبد الجنة، وبكلمة يدخل العبد النار؛ قال ×: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»(١) **جَهَنَّمَ**»(١)

وقال ×: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**»(٢)

وقد غضب الله على بني إسرائيل بسبب كلمة حين قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة٥٨] وكلمة (حِطَّة) أي: حُطَّ عنّا خطايانا، فبدَّلُوا القول مُحرِّفين ومُغيِّرين : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة٥٩] قال العلماء: إن بني إسرائيل قالوا: (حِنْطة) فزادوا حرفًا في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا!.

والكلام يُعَدُّ شهوة من الشهوات كالطعام والجِمَاع؛ لِذَا كان الصوم عن الكلام من العبادات التي يُتقرَّب بها إلى الله تعالى في الأمم السَّابقة، قال

---

(١) رواه البخاري ٦٤٧٨، مسلم ٢٩٨٨، الترمذي ٢٣١٤.

(٢) رواه البخاري ٦٤٧٤، الترمذي ٢٤٠٨.

تعالى عن مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[مريم٢٦] وقد نُسخت هذه العبادة من شرعنا، وبقيت من الآداب السامية والأخلاق الفاضلة في الإسلام.

فحين يُعجب الإنسان بنفسه وبمنطقه بين الناس يكون السكوتُ هَا هُنَا واجبًا؛ للمحافظة على القلب من الرِّياء والفساد، قال عبيد الله بن أبي جعفر: «إذا كان المرء يحدث في مجلس، فأعجبه الحديث، فليمسك، وإذا كان ساكتًا، فأعجبه السكوت، فليتحدَّث»(١).

والسكوتُ في هذه المواقف صعبٌ لا يستطيعه كثير من الناس بل الذي يقدر عليه من يعرف أثر الكلمة وخطورتها، ويعرف أنها قد تكون فيها هلاكه، قال خلف بن إسماعيل: قلت لسفيان الثوري: «إذا أخذت في الحديث نشطت وأنكرتُكَ، وإذا كُنْتَ في غير الحديث كأنك ميت! فقال: أما علمت أنَّ الكلام فتنة»(٢)، وقال عبد الله بن أبي زكريا: «ما عالجت من العبادة شيئًا أشدّ من السُّكُوت»(٣)

لذا؛ كانت قلّة الكلام من وصايا العلماء والحكماء لأتباعهم فعن صالح بن أبي الأخضر قال: قلت لأيوب السختياني: أوصني، قال: «أقلّ الكلام»(٤)، وكان الأوزاعي يقول لأتباعه وتلاميذه: «من عرف أن منطقه من عمله قَلَّ كلامه»(٥)، وكان الفضيل بن عياض يقول: «لا حجّ ولا جهاد

(١) سير النبلاء ١٠/٦.

(٢) سير النبلاء ٢٦٧/٧

(٣) سير النبلاء ٢٨٦/٥.

(٤) سير النبلاء ٢٢/٦.

(٥) سير النبلاء ١٢٢/٧.

أشدّ من حبس اللّسان، وليس أحدٌ أشدّ غمًّا مِمَّن سجن لسانه»[١]، وقال بشر الحافِي: قال مرة رجل للمعافي: «ما أشد البرد اليوم! فالتفت إليه المعافى، وقال: أستدفأت الآن؟ لو سكت، لكان خيرًا لك»[٢]، وقول مثل هذا جائز، لكنهم كانوا يكرهون فضول الكلام وكثرته، ويحذرون منه؛ لأنه من الخَطَإِ الكبير أن يطلق الإنسان لسانه فيما لا يعنيه، وأكبر منه أن يطلقه فيما لا يحل له.

قال ابن القيم: لأن فضول الكلام يفتح للعبد أبواب الشر كلها وهو مدخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب، وقد قال ×: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[٣]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ ثُوُفِّيَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ يَعْنِي رَجُلاً أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ×: «**أَوَ لاَ تَدْرِي فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لا يَعْنِيهِ أَوْ بَخِلَ بِمَا لا يَنْقُصُهُ**»[٤].

قال الذهبي: «واختلف العلماء في الكلام المباح، هل يكتبه الملَكان، أمْ لا يكتبان إلا المستحب الذي فيه أجر، والمذموم الذي فيه تبعة؟ والصحيح كتابة الجميع لعموم النص في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق١٨] ثم ليس إلى الملَكَيْن اطّلاع على النيَّات والإخلاص، بل يكتبان النطق، وأما السرائر الباعثة للنطق، فالله يتولاها»[٥].

وقد تكون الكلمة سببًا في هلاك إنسان أو إزهاق روحه، فعن خرزاذ

---

(١) سير النبلاء ٤٣٦/٨

(٢) سير النبلاء ٨٤/٩

(٣) رواه الترمذي ٢٦١٦، ابن ماجة ٣٩٧٣، السلسلة الصحيحة ٧٧٢.

(٤) رواه الترمذي ٢٣١٦، صحيح الترغيب ٢٨٨٢.

(٥) سير النبلاء ٨٤/٩

العابد قال: «حدث أبو معاوية الرشيد بحديث: "احتج آدم وموسى" فقال رجل شريف: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد، وقال: النطع والسيف، زنديق يطعن في الحديث، فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول: بادرة منه يا أمير المؤمنين، حتى سكن»[١].

وهذا المتنبي هَمَّ لِيَفِرَّ مِمَّنْ أرادوا قتله فقال له مولًى له: أين تذهب وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والرُّمحُ والسّيف والقرطاس والقلم

فقال له: ويحك قتلتني ثم كَرَّ راجعًا فطعنه زعيم القوم برمح في عنقه فقتله، ثم اجتمعوا عليه فطعنوه بالرماح حتى قتلوه[٢].

وبكلمة واحدة يمكن أن تكون سببًا في إحياء نفس، قال القرطبي: روي عن بعضهم أنه قال: كنت واقفًا على رأس الحجاج حين أتي بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرًا قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ في حق الذين كفروا، فوالله ما منَنت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجيف؛ أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام؟ خلوا سبيل من بقي، فخُلي يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين، بقول

---

(١) تاريخ بغداد ٧/١٤.

(٢) البداية والنهاية ٢٧٣/١١.

ذلك الرجل»[١].

ويمكن للكلمة أن تغير مجرى حياة إنسان فيتحول من حال إلى حال، وتكون سببًا في هدايته أو شقائه، فهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد، وكان قبلُ من المترفين المختالين في مشيته، يلبس الحرير ويتقلَّب في النَّعم، قال له عبد الله بن كثير: «ما كان بدء إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال لي: اذكر يومًا صبيحتها يوم القيامة»[٢].

وهذا إبراهيم بن أدهم كان ابن ملك من ملوك خراسان، وكان قد حُبِّبَ إليه الصيد، قال: «فخرجت مرة فأثرت ثعلبًا فهتف بي هاتف: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، قال: فوقفت وقلت: انتهيت انتهيت، جاءني نذير من رب العالمين»[٣].

والصيد من اللهو المباح؛ ولكن اللهو لا يصح لكثير من الناس، ولا تنسجم نفوسهم معه، فهذه الأمة لم تخلق للهو والعبث، ولا يجب أن يأخذ اللهو من حياتها أكثر من الجد، بل الجد هو القاعدة، والشاذ هو اللهو، أما أن يأتي العابثون واللاهُون ويحولون اللهو إلى اهتمامات وغايات ويشغلون الأمة به فهذا من الخَطَإِ الذي لا يُغْتَفَر!.

وهذا الفضيل بن عياض، ذكروا أنه كان شاطرًا يقطع الطريق، وكان يتعشَّق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسوَّر عليها جدارًا إذ سمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد١٦] فقال: بلى! وتاب وأقلع عما كان عليه»[٤]؛ فكان بعد ذلك أحد أئمة العبّاد الزّهاد وأحد العلماء الأولياء، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام، وكان سيِّدًا جليلا ثقة

---

(١) التفسير على آية ٤ من سورة محمد.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن جوزي ص ١٤٩.

(٣) البداية والنهاية ١٣٩/١٠

(٤) البداية والنهاية ٢٠٦/١٠

من أئمة الرواية رحمه الله.

وهذا أبو سليمان الداراني يقول: اختلفت إلى مجلس قاص فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء، فعدت إليه ثانية فأثر كلامه في قلبي بعدما قمت وفي الطريق، ثم عدت إليه ثالثة فأثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي، فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق»[١]، فأصبح بعدُ أحد أئمة العلماء العاملين، وقد حكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركيا، يعني بالعصفور القاص، وبالكركي أبا سليمان. (والكركيا طائر كبير).

وهذا الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها، أبو جعفر الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف، وكان شافعيًّا يقرأ على خاله أبي إبراهيم المزني، فقال له يومًا: والله لا جاء منك شيء، فغضب أبو جعفر من ذلك، وانتقل إلى ابن أبي عمران الحنفي، فلما صنف مختصره، قال: رحم الله أبا إبراهيم: لو كان حيًّا لكفَّر عن يمينه»[٢].

وهذا جعفر بن حرب الكاتب كانت له نعمة وثروة عظيمة تقارب أبهة الوزارة، فاجتاز يومًا وهو راكب في موكب له عظيم، فسمع رجلاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد١٦] فصاح: اللَّهُمَّ بلى، وكررها دفعات ثم بكى ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه وطرحها ودخل دجلة فاستتر بالماء ولم يخرج منه حتى فرق جميع أمواله في المظالم التي كانت عليه، وردها إلى أهلها، وتصدق بالباقي ولم يبق له شيء بالكلية، فاجتاز به رجلٌ فتصدق عليه بثوبين فلبسهما وخرج فانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات رحمه الله»[٣].

وهذا الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف، أبو محمد بن حزم، الأندلسي الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير الظاهري، صاحب

---

(١) البداية والنهاية ٢٦٦/١٠

(٢) سير النبلاء ٢٩/١٥.

(٣) البداية والنهاية ٢٥١/١١.

التصانيف، قال رحمه الله: إن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد، فجلس، ولم يركع، فقال له رجل: قُمْ فَصَلِّ تحيَّة المسجد»[١].

وهذا الحسن بن علي وكان مِزْوَاجًا مِطْلاقًا، ذكروا أنه طلَّق امرأتين في يوم، واحدة من بني أسد وأخرى من بني فزارة، وبعث إلى كل واحدة منهما بعشرة آلاف وبزقاق من عسل، وقال للغلام: اسمع ما تقول كل واحدة منهما، فأمَّا الفزارية فقالت: جزاه الله خيرًا، ودَعَتْ له، وأمَّا الأسدِيَّة فقالت: متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق؛ فرجع الغلام إليه بذلك، فارتجع الأسدية، وترك الفزارية»[٢].

وبكلمة طلَّق إسماعيل -عليه السلام- زوجته التي شكت حالها لإبراهيم -عليه السلام- ولم تكن تعرفه، وبكلمة ثبَّتَ إسماعيل زوجته الأخرى التي حمدت الله على حالها لإبراهيم الذي قال لها: إذا جاء إسماعيل فقولي له: إن شيخًا كبيرًا جاء وهو يُقرئك السلام ويقول لك: ثبِّتْ عتَبَةَ بَابِك.

وبكلمة في حميّة وعصبيّة أسلم حمزة بن عبد المطلب عمُّ النبي ×.

وبكلمة الختام أقول: أسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن ينفعنا بما علمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا؛ إنه على كل شيء قدير، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) سير النبلاء ١٨/١٩٩.

(٢) البداية والنهاية ٨/٣٩.

الخيرُ الوفيرُ في بعضِ ما يكرهُهُ أناسٌ كثيرون

تَمُرُّ على الإنسان خلال حياته مواقِفُ كثيرة، يتعرَّض في بعضها للأذى والضيق، وفي بعضها للرّفعة والسَّعة، وقد يتخذ في بعضها القرارات التي يعتقد أنها صائبة، فيفرح بتحصيل شيء، ويحزن على ضياع شيء، وهو لا يعلم الخير والشر على وجه الحقيقة، فقد يجلب لنفسه شرًّا وهو لا يعلم، وقد يُبعد عن نفسه خيرًا وهو لا يعلم، وهذا من جراء حُكمه على المواقف والأحداث بالظاهر، ومن قلة علمه بالغيب والباطن، فالله هو المستأثر بعلم الغيب ولو علمه أحد من البشر لاستكثر من الخير وأبعد عن نفسه الشر؛ قال تعالى على لسان نبيه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف١٨٨].

وقد علَّم الله تعالى المسلمين ألا يحزنوا على ما فاتهم من متاع الدنيا الزائل وألا يفرحوا بجلب هذا المتاع وذلك في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد٢٣]، وهذا لا يعني أن الإنسان لا يسعى، بل السعي في تحقيق المطالب المباحة للنفس مطلوب، فهو لا يعلم في أي شيء يكون الخير، وفي أي شيء يكون الشر، وبخاصة الابتلاءات والأمور القدرية التي ليس للإنسان دخل فيها.

وكم من أناس رزقهم الله المال فأودى بهم إلى الكبر، وكان سببًا في نقمة الله عليهم؛ لأنهم لم يُراعوا حق الله فيه، فالعبرة ها هنا أن الإنسان قد يحب الشيء ويكون فيه هلاكه، وقد يكره الشيء ويكون فيه صحته وعافيته، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة٢١٦] فالإنسان بطبعه يحب الزوجة والأولاد والتمتع بنعم الله في الحياة، ويكره الحرب والدمار والموت، ولكنه –أي: الجهاد- يكون خيرًا في بعض الأحيان للحفاظ على الزوجة والأولاد وبلاد المسلمين من الضياع، وقال أيضًا مؤكدًا لهذا المعنى: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء١٩]

ثم أكده تعالى بحادثة من واقع حياة الناس، فهؤلاء نفرٌ من بني إسرائيل خرجوا هروبًا وخوفًا من الطاعون وكرهوا نزوله بأرضهم، فخرجوا منها على خلاف الهدي النبوي فأمر الله بموتهم، فماتوا جميعًا من فورهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[البقرة٢٤٣] قال ابن عباس: «كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون وقالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، فأماتهم الله تعالى؛ فمر بهم نبي فدعا الله تعالى فأحياهم»(١).

لذا؛ قال × عن الطاعون: «إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا بَلَغَكُمْ أَنَّهُ بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوهَا»(٢).

وعلى النقيض من هؤلاء القوم، فقد فرح قوم هود بسحاب رأوه في السماء ظانين أنه غيث، فكان عذابًا من الله تعالى القائل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف٢٤-٢٥]

وأيضًا فقد التقط فرعون وآله موسى -عليه السلام- رجاء أن يكون لهم قُرَّة عين فكان كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[القصص٨] فاللام في قوله تعالى: (ليكون لهم عدوًا وحزنًا) يسميها العلماء لام الصيرورة أو لام العاقبة، والمعنى: التقطه آل فرعون وهم فرحون؛ ليكون لهم ابنًا بارًّا وسندًا وعونًا، فكان بتقدير الله عدوًا وحزنًا.

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ينزل الابتلاء به وبزوجته سارة

---

(١) كما في القرطبي على تفسيره للآية.

(٢) رواه البخاري ٣٤٧٣، مسلم ٢٢١٨، الترمذي ١٠٦٥.

فكان في ظاهره الشرّ والكراهة ولكن في طيّات المحنة منحة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ×: «دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنْ الْجَبَابِرَةِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ مَنْ هَذِهِ مَعَكَ قَالَ أُخْتِي قَالَ أَرْسِلْ بِهَا، قَالَ فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ وَقَالَ لَهَا لاَ تُكَذِّبِي قَوْلِي فَإِنِّي قَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ قَالَ فَلَمَّا دَخَلَتْ إِلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا قَالَ فَأَقْبَلَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي وَتَقُولُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلاَّ عَلَى زَوْجِي فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ قَالَ فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ قَالَتْ اللَّهُمَّ إِنَّهُ إِنْ يَمُتْ يُقَلْ هِيَ قَتَلَتْهُ قَالَ فَأُرْسِلَ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي وَتَقُولُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلاَّ عَلَى زَوْجِي فَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ قَالَ فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ قَالَ قَالَتْ اللَّهُمَّ إِنَّهُ إِنْ يَمُتْ يُقَلْ هِيَ قَتَلَتْهُ قَالَ فَأُرْسِلَ فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلاَّ شَيْطَانًا ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَعْطُوهَا هَاجَرَ قَالَ فَرَجَعَتْ فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ أَشَعَرْتَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رَدَّ كَيْدَ الْكَافِرِ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً»(٣).

وهكذا عادت سارة إلى إبراهيم بغنيمة باردة وأخدمها الله هذه الجارية، ثم كان من أمر الجارية هاجر ما كان من ولادة إسماعيل عليه السلام، وكان من نسله محمد ×، فكل هذه الأحداث ظاهرها الشر والمحنة ولكنها تنطوي بقدر الله على عطاءات ربانية ما كان لها أن تكون لولا هذه الأسباب والأحداث الجسام.

وقد تعلم سلفنا الصالح أن الشر قد ينطوي على الخير، وأن الخير قد يظهر من ورائه الشر، فلا يعلم هذا وذاك إلا الله تعالى، وقد نزلت آيات عدة في أكثر من موضع في القرآن الكريم تنبههم إلى ذلك، ففي الأحداث التي أحاطت بغزوة بدر أن الصحابة أرادوا أن يُغِيْرُوا على تجارة قريش الآتية من الشام مرورًا بمحاذاة المدينة بصحبة أبي سفيان ليعوضوا شيئًا مما تركوه في مكة لكفار قريش، ولم يريدوا أبدًا الدخول مع قريش في مواجهة، ولكنَّ الله تعالى أراد الحرب؛ ليستأصل شوكة قريش ويظهر الإسلام ويزداد رفعة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ

(٣) رواه البخاري ٢٢١٧، مسلم ٢٣٧١، أبو داود ٢٢١٢، الترمذي ٣١٦٦.

ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال٧] أي: تريدون التجارة لا الحرب، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال٨] وكان الخير فيما أراده الله، وكانت غزوة بدر الكبرى الفاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين حتى سمَّى الله يومها (يوم الفرقان) الذي فرَّق فيه بين الحق والباطل.

وفي صلح الحديبية بين المسلمين ومشركي قريش كان ظاهر شروط الصلح أنها مجحفة بالمسلمين، وخاصة الشرط القائل بأن من جاء من قريش مسلمًا إلى رسول الله × أعاده × إلى قريش، ومن جاء من المسلمين إلى قريش لم يعيدوه. فاغتاظ الصحابة وقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا؟! قال: "نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا".

وجاء عمر بن الخطاب وراجع رسول الله × في هذا الشرط وهَمَّ أن يعلن عدم قَبُولِهِ لولا رحمة ربه، ولكن بعد حين خرج النفر الذين أسلموا من مكة وتجمعوا بساحل البحر ينهبون قوافل قريش الذاهبة إلى الشام، فاستغاثت قريش برسول الله × أن يرسل إليهم؛ ليكونوا بجواره في المدينة وأن يسقطوا هذا الشرط، فلما ظهرت هذه الحقائق للصحابة قَالَ الصحابي الجليل أَبُو وَائِلٍ لأتباعه: «اتَّهِمُوا الرَّأْيَ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الحُدَيبية وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ × أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَمَا وَضَعْنَا أَسْيَافَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا لأَمْرٍ يُفْظِعُنَا إِلاَّ أَسْهَلْنَ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ قَبْلَ هَذَا الأَمْرِ»(٤)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً-أي: مكفرات عن مراجعته لرسول الله × وقد كان أدرى منه وأطوع لربه تبارك وتعالى.

وما زال الصحابة يتعلمون منه × ومن مواقفه، وما زال القرآن ينزل ليصحح الأفهام، ويُرَقِي العقول ويعلمهم ألا يكرهوا أمرًا ظاهره الشر والذي سرعان ما ينجلي وينزاح تاركًا الخير واضحًا جليًّا، فهذه بركة

(٤) رواه البخاري ٤١٨٩، مسلم ١٧٨٥.

عائشة رضي الله عنها تتجلى في هذا الموقف حيث قَالَتْ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ × فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ ذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ × عَلَى الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَأَتَى النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالُوا أَلاَ تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ × وَبِالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُ اللَّهِ × وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ × وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ قَالَتْ عَائِشَةُ فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَجَعَلَ يَطْعُنُ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَمَا مَنَعَنِي مِنْ التَّحَرُّكِ إِلاَّ مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ × عَلَى فَخِذِي فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ × حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، جَزَاكِ اللَّهُ خَيْرًا فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ بِكِ أَمْرٌ قَطُّ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ لَكِ مِنْهُ مَخْرَجًا وَجَعَلَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ بَرَكَةً»(٥)

هذا، وقد أوضح الله لها من قبل هذا المعنى في الحادث الجلل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور ١١]

وهذه جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، سُبيت يوم غزوة المريسيع في السنة الخامسة، وكان أبوها سيِّدًا مطاعًا في قومه، ولكنهم اليوم أسرى حرب لرسول الله ×، وهذا السبي لا شك يكرهه الناس أجمعين فهو الذي يجعل الحر عبدًا والعزيز ذليلاً والقوي ضعيفًا والشامخ منكسًا، فأصابها وقومها الهم والغم، فأتت النبي × تطلب منه إعانة في فكاك نفسها، فقال: "أو خير من ذلك؟ أتزوجك" فأسلمت، وتزوج بها؛ وأطلق لها الأسارى من قومها.

فكان الخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله في هذا السبي وفي هذه الحرب، وزاد الخير وفاض على جويرية فأصبحت -بفضل من الله- أُمَّ المؤمنين.

وهذه أم المؤمنين أم سَلَمَة نزل بها من البلاء ما نزل، حيث توفي

---

(٥) رواه البخاري ٣٣٤، مسلم ٣٦٧، أبو داود ٣١٧، النسائي ٣١٠، ابن ماجة ٥٦٨.

زوجها فأظلمت الدنيا في وجهها وأحست أن نهاية الحياة قد اقتربت، ولكنها لما رضيت بقضاء الله وقدره، وامتثلت لشرع نبيها × وجدت الخير فيما خبأه الله لها، وأحست بالخير يلفه الشر الظاهر المتمثل في موت زوجها وعصب حياتها، فقالت رضي الله عنها: «لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ اسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهُ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي قُلْتُ مِنْ أَيْنَ لِي خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي فَخَطَبَنِي × إِلَى نَفْسِي. قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَقَدْ أَبْدَلَنِي اللهُ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْرًا مِنْهُ رَسُولَ اللهِ ×»(٦).

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قال ×: «قال رَجُلٌ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى سَارِقٍ وَعَلَى غَنِيٍّ فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ تُقُبِّلَتْ أَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهِ مِنْ زِنَاهَا وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهِ عَنْ سَرِقَتِهِ وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ أَنْ يَعْتَبِرَ فَيُنْفِقَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»(٧)

قال العلماء: قول الرجل (اللهم لك الحمد) لأن صدقتي وقعت بيد من لا يستحقها في ظاهر الأمر وفي حكمي وتقديري، فلك الحمد حيث كان ذلك بإرادتك لا بإرادتي، فقد سلَّمت وفوَّضت ورضيت بقضائك؛ فأنت وحدك المحمود على جميع الحال، لا يحمد على المكروه سواك.

وقد تعجب الصحابة من هذا الرجل كيف قُبل منه هذا العمل، ولكنها بركة التسليم والرضا، وعدم التسرع في الأحكام وإن كان ظاهرها عدم الرضا أو القبول، لذا قال بعض السلف: لا تقطع الخدمة ولو ظهر لك عدم القبول.

---

(٦) رواه مسلم ٩١٣، أبو داود ٣١١٥، الترمذي ٣٥١١، ابن ماجة ١٥٩٨.

(٧) رواه البخاري ١٤٢١، مسلم ١٠٢٢، النسائي ٢٥٢٢.

«وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- تمكن منه أعداؤه وعلى رأسهم نصر المنبجي، فنفوه وسجنوه وعذبوه، فلم تَلن له قناة، ولم تهن له عزيمة، وما زاد ذلك الناس إلا محبَّة فيه وقربًا منه وانتفاعًا به واشتغالاً عليه، وحنُوًّا وكرامة له.

وقد ظن أعداؤه أن ذلك يؤدي إلى هلاكه فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وأمسوا وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه، يتقطعون الحسرات ندمًا على ما فعلوا، وقد نزل بهم وبكبيرهم نصر المنبجي من الخوف والذل ما لا يعبر عنه.

وما زال في كل وقت ينشر من علم شيخ الإسلام ابن تيمية ما تقر به أعين المؤمنين، واستقر عند عامة المؤمنين محبة الشيخ وتعظيمه وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه»[٨].

من فهم هذه الأمور العظام، وهذه الفوائد البديعة، كانت بعض مواقفه وبعض تعاملاته مع الأحداث موافقة لفعل الشيخ أبو محمد بن أبي زيد الذي كان من العلم والدين في المنزلة والمعرفة، وكانت له زوجة سيئة العشرة وكانت تقصر في حقوقه وتؤذيه بلسانها؛ فيقال له في أمرها ويعذل بالصبر عليها، فكان يقول: أنا رجل قد أكمل الله عليَّ النعمة في صحة بدني ومعرفتي وما ملكت يميني، فلعلها بعثت عقوبة على ذنبي فأخاف إن فارقتها أن تنزل بي عقوبة هي أشد منها»[٩].

وأخيرًا، قال ابن عمر: إن الرجل ليستخير الله تعالى فيخار له، فيسخط على ربه -عز وجل- فلا يلبث أن ينظر في العاقبة فإذا هو قد خير له.

---

(٨) البداية ٥١/١٤ بتصرف شديد.

(٩) تفسير القرطبي على الآية ١٩ من سورة النساء.

فشلُ المِصريِّينَ بداءِ الثقةِ وزائِفِ اليَقِينِ

يمكن أنْ تُقَاسَ حضارة الأمم والشُّعوب ورُقيّها بما يستطيعه أفرادها من الاندماج في العمل الجماعيِّ والاشتراك في إنجاز هدف محدد من خلال الجماعة، فكثير من شعوب أوربَّا وأمريكا لم تصل إلى ما هي فيه إلا من خلال العمل الجماعي، وهذا ما لا يوجد له أثرٌ عند أكثر الشعوب العربية والإسلامية وبخاصة المصريُّون، فالجميع عندنا لا يجيد -إن هو أجاد- إلا العمل الفرديّ؛ فالأنانية هي المتحكّمة في عقول هذا الشعب، والفرديّة هي المسيطرة على كيانه؛ لذا يقل النجاح ويكثر الفشل، ويزيد الشرُّ وينحصر الخير.

فكل فرد في المجتمع المصري يعتقد في قرارة نفسه أنه هو الذي يفهم على وجه الحقيقة وغيره لا يفهم، وهو الصَّواب وغيره على خطإٍ، وهو الذي يستطيع وغيره لا قدرة له.

فالثقة الزائدة على غير هدى من الله تولد يقينًا زائفًا لتوهمات ليست بالحقائق، وهذا بعينه ما وقع فيه المصريون؛ لذا نجد فشلاً ذريعًا في كافة قطاعات الحياة، وصفرًا كبيرًا في كل مجال؛ صفرًا في مستوى الأخلاق، وصفرًا في مستوى التعليم وصفرًا في مستوى الرياضة، وصفرًا في مستوى الفن، وصفرًا فى الاقتصاد، وصفرًا في السياسة، وصفرًا في كل مجالات الحياة!.

فعلى المستوى الأخلاقيّ لا نجد شعبًا من الشعوب العربية تكثر فيه الجريمة وينتشر فيه التّحلُّل الخلقى وتقليد الغرب في الفساد إلا الشعب المصري، إلى جانب السلوك السيئ لأفراد شعبه في الشارع وفي المصالح الحكومية وفي المدارس والجامعات، وانتشار الشره المادي بين أفراد شعبه حتى إنك لا تجد من يعمل لبلاده بجد وإخلاص فالمدرسون والأطباء والمحامون في صراع محموم من أجل جمع المال من حل وحرام ولا يبالون، فضلاً عن الرشوة المنتشرة في كل مكان بالدولة والتي أكلت المجتمع المصري من جذوره.

وعلى المستوى العلمي العام فإن الجامعات المصرية في مؤخرة جامعات العالم من حيث التقييم لمستويات التعليم والمنهاج العلمية، ناهيك عن مستوى الخرجين الذين لا يستطيعون كتابة بعض الكلمات ذات

الهمزات سواء التي على السطر أو على الواو أو على الألف أو على نبرة!، كما أن الاهتمام منصب في المقام الأول على الشهادة وليس نوعية حامل الشهادة فكثر فينا أصحاب (البكالوريوس والليسانس) وليس فينا نافعٌ لأمته باختراع يُضاف إلى الحضارة البشرية من المسلمين!.

وعلى المستوى العلمي الديني نجد أنه ليس عند المصرين إلا شعار: "نحن بلد الأزهر الشّريف" وحُقّ للشعار أن يكون: "نحن بلد الأزهر الذي كان شريفًا" لأنَّ المصريين رغم تشدقهم بهذا الشعار لا يسمعون لشيوخه فتوى، ولا يطبقُونَ لهم عِلْمًا، في حين أنَّ علماء الحجاز والخليج لهم الكلمة المسموعة لدى شعوبهم فقد رأينا من يمسك بفتوى الشيخ الصالح ابن باز رحمه الله، ويستشهد بها فى المجامع وفي وجه المعترض، وعلى الفور يقر المعترض من غير نقاش ولا جدال، كما رأينا الشيخ الصالح محمد بن صالح العثيمين بعلمه الغزير وفقهه الوفير ينصاع له كل الخلق، في حين أن نظراءهم المصريين كالمفتى وشيخ الأزهر ورئيس جامعة الأزهر ليس لهم التبجيل والاحترام وسماع الكلمة لدى الشعب كما لهؤلاء؛ لأن هذه المناصب كغيرها من مناصب الدولة لا يوضع فيه إلا الضعيف المُسَيَّر ليس القوي المخَيَّر، وإذا جاء القوي يُزال على الفور!.

كما أن كثيرًا من مشايخ الأزهر يضع الخليج ومشايخه في خانة سوداء ويصفهم بالوهوابيين كأنها سبة ووالله لقد أقاموا دولة الإسلام ويحسدون عليها وأقاموا العلم والعمل، في حين أنه ليس لنا دولة أو علم أو عمل.

وعلى المستوى الرياضي –رغم رفضنا للرياضة الخالية من القيم الإسلامية- فإن مصر بثقلها! -كما يدعون- حصدت صفرًا كبيرًا من قبل جميع المرشحين لتولي إقامة كأس العالم لكرة القدم وتأخذه جنوب أفريقيا! إنها العنجهية الخاوية التي لا وزن لها في المجتمع الدولي.

ناهيك عن الفشل في كثير من الرياضات الجماعية والفردية التي تفوق الخلجيُّون على نظرائهم المصريين بشوط كبير، واكتفَى المصريُّون بحضارة السبعة الآلاف سنة!.

وعلى المستوى الفني والإعلام يدعى المصريون أنهم (هوليود) الشرق، وهذا القول من الظلم والزور بمكان فقد غزتنا المسلسلات التركية والسورية على حد سواء، فقد أبدعوا مسلسلات جذابة من حيث الفكرة والإخراج والمضمون الدِّرامي والسياق الاجتماعي، وقد ملأت زوايا

الفضائيات وجذبت الشعوب العربية، ولم تعد (للدراما) المصرية كبير شأن لأننا لا نجيد حتى العبث، (أقول هذا وإن كان الفن بوضعه الحالي مرفُوضًا عندنا؛ ولكن نحن في مقام التقييم، وإخواننا المصريون يصرون على أنهم متفوقون فيه).

كما أن الناظر إلى نشرة الأخبار في القناة الأولى المصرية ومقارنتها بمثيلتها في قناة الجزيرة القطرية فإنه يندم أشدَّ الندم على تضْييعِهِ الوقت أمام القناة المصرية صاحبة حضارة السبعة الآلاف سنة التي لا تسمن ولا تغنى من جوع أخبارها الزائفة.

وفي مجال الغناء وإن كان في شريعتنا حرام لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان٦] وقوله × (الحرّ والحرير) إلا ما استثناه العلماء، فإننا نقول: حتى في مجال الغناء فليت غناء القصائد الشعرية هو السمة البارزة أو الغناء الداعي إلى الأخلاق الفاضلة بل إن هناك فشلاً ذريعًا؛ حيث الغناء المبتذل الداعي إلى كل رذيلة والمهيج لمشاعر الجنس، كما أن الغناء للحمير والخضروات والفاكهة أصبح هو سمة هذه الحضارة صاحبة السبعة الآلاف سنة!.

وفي مجال المحاورات وتقديم الشخصيات التي تكون محورًا للنقاش أو بث الثقافة في المجتمع سواء السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو الثقافية أو الفنية فإنها تكون من النوع الرديء الذي لا يملأ ناظريك كأن البلد ليس فيه علماء، وأنهم يتعمدون أن يأتوا بالمهمَّشين، أو أن القيادات في البلاد أصبحت من المهمَّشين فعلاً وأن أصحاب العقول الفذة وأصحاب الإبداعات والمتفوقين قد تم إقصاؤهم عن أماكنهم.

وعندما ضُرب الإعلام المصري ضربات موجعة ممن حوله من العرب والخليجيين والسوريين المتفوقين أخذ بدون مواربة يهاجم هذا القنوات ويصفها بأنها تتعامل مع العدو الصهيونيّ، والعجيب أن الناس يعلمون تمام العلم أن إعلامنا هو الذي يتعامل مع العدو الصهيوني؛ ولكنها خيبة الفاشل وسلاح الضعيف المهزوز، فإن من يحجب الحقائق ويواريها التراب هو العدو فاحذره.

وعلى المستوى الاجتماعي فإن بيانات الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء تشير إلى أن عدد العاطلين في مصر قد بلغ نحو ١,٧٨ مليون

عاطل في بداية عام ٢٠٠٢م بما يعني أن معدل البطالة قد بلغ نحو ٩,١ ٪ من إجمالي تعداد القوى العاملة في مصر وبالمقارنة مع بلد مثل ماليزيا مثلاً نجد أن معدل البطالة بلغ نحو ٣,٧٪ .

وفي حين يقرأ الشباب في كتب الدراسة عن مصطلح (الثروة البشرية) يجد الدولة تلجأ عادةً إلى إلقاء المسئولية عن ضعف الأداء الاقتصادي على معدلات الزيادة السكانية وبدلاً من أن تنظر الدولة إلى المورد البشري كعنصر إنتاجي مهم يمكن توظيفه بشكل فعال في إنتاج السلع والخدمات وزيادة قدرة الاقتصاد المحلي من خلال استثمارات جديدة تستوعبه، فإنَّها تبرر فشلها في تعليق ذلك بشماعة ارتفاع معدلات النمو السكانية، رغم أن تلك المعدلات تتراجع تلقائيًّا بالتوازي مع ارتفاع مستويات المعيشة والتعليم، وليس بالصراخ والشكوى من ارتفاعها.

وبالمقارنة مع ماليزيا نجد أنها تحقق معدلات نمو سكاني أعلى من مصر منذ عام ١٩٦٥م وحتى الآن بلا انقطاع، وقد بلغ متوسط معدل نمو السكان في ماليزيا نحو ٢,٤٪ سنويًّا خلال الفترة من ١٩٩٠م حتى ٢٠٠٣م، مقارنةً بنحو ١,٩٪ سنويًّا في مصر خلال هذه الفترة.

أضف إلى ذلك المشاكل المزمنة التي يعاني منها المجتمع المصري كالفقر والعنوسة، وتدني مستوى التعليم والصحة، وعدم وصول الخدمات لكثير من قطاعات الشعب كالمياه النقية، والصرف الصحي، والنقل والمواصلات، والطاقة من كهرباء وغاز طبيعي، والاتصالات.

وانتشار ظاهرة التسرب من التعليم، وتعاطي المخدرات، وزيادة المناطق العشوائية، وكثرة أعدادِ المهمَّشين الذين يعيشون في العراءِ بلا مأوى، أو يعيشون في المقابر والعشش والجراجاتِ والمساجد وتحت السلالم.

وكثرة الأمراض السرطانية، والأمراض المزمنة، والمصابون بأمراض الصدر والحساسية والأنيميا والأمراض الجلدية.

في حين نرى ماليزيا تنفق على القطاع الصحي ما يساوي أربعة أضعاف ما يُنفَق في مصر من إجمالي الموازنة العامة للدولة.

وعلى المستوى الاقتصادي؛ فحدث ولا حرج عن والتضخم والغلاء والتبعية الغذائية والمديونيات والفوائد الربوية، والخلل النقدي، وقلة الصادرات وكثرة الواردات حتى لقد بلغت صادرات مصر لعام ٢٠٠٧ ما يقارب ٤ مليار دولار، بينما تونس الأصغر مساحة تصدر بما يقارب ٤٠ مليار دولار، والمغرب ما يقارب ٨٠ مليار دولار.

مما زاد من معدلات الفقر والتي أعلنها البنك الدولي في تقريره عام ٢٠٠٥م الصادر في فبراير ٢٠٠٦م أن الأشخاص الذين يقل دخلهم اليومي عن ١ دولار (٥,٨ جنيه يوميًّا أي ١٧٤ جنيه شهريًّا) هم فقراء ويقدَّر عددهم بنحو ٢,٣ مليون شخص، وبالنسبة لمن يقل دخلهم اليومي عن ٢ دولار (١١,٦ جنيه يوميًّا أي ٣٤٨ جنيه شهريًّا) فيقدَّر عددهم بنحو ٤٣,٥ مليون شخص.

أما تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥م، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) ومعهد التخطيط القومي مؤخرًا يقرر أن أغنى ٢٠٪ من السكان في مصر يحصلون على ٤٣,٦٪ من الدخل القومي، بينما أفقر ٢٠٪ لا يحصلون إلا على ٨,٦٪ من الدخل القومي بما يعكس التفاوت الطبقي وسوء توزيع الدخل وتركز الثروات وانتشار الإنفاق الترفي في مواجهة انتشار الفقر.

لَمْ يَكْفِ هذا وزير الضرائب المصري حتى فرض على الناس ضريبة عقارية، تكون ثمنًا لمن يقيم في بيته الخاص كأنَّ الناس قد استأجرت منازلها من دولة الحكومة أو حكومة الدولة، فإنا لله وإنا إليه راجعون!.

وفي مجال المعمار وإنشاء المدن الجديدة فإن المتابع والمشاهد لمدن جديدة مثل: دبي والرياض مثلاً يجد أنها تفوق القاهرة بمراحل فضلاً عن الصيانة الدورية لتلك المجتمعات بما لا يجعلها مأوى للزبالة والأوبئة في يوم من الأيام، كما يحدث عندنا في العاصمة.

وعلى المستوى الأمني الداخلي (القومي كما يزعمون) تقول الحكومة: نحن بلد الأمن والأمان ولا بد من الالتزام بطفاية الحريق بالسيارات، وفي حين تُصر الحكومة على هذا نجد أن مجلس الشورى في البلد يُحرق عن آخره، وبعد فترة قصيرة يُحرق المسرح القومي!. ومن قبل حريق قطار الصعيد....والبقية تأتي.

وعلى مستوى الصّحف (القومية) نجد رئيس تحرير صحيفة الثقافة والاعتدال والنخبة والمثقفين، لصًّا من الطراز الأول رغم سمته الذي خدع به الجماهير سنين طوالاً، ونجد رئيس تحرير الصحيفة الشعبية بالبلاد منافقًا خالصًا للحكومة والحاكم، ويتبين في الأخير أنه في اللُّصوصيَّة أكبر من أخيه.

والحكومة وما أدراك ما الحكومة! فهل يصدق عقل أن حكومة بلد في العالم تستأنف حكمًا لعدم السماح لها بتصدير الغاز إلى إسرائيل بسعر زهيد، ويمكن لها أن تصدره بالسعر العالمي إن أرادت، هل يُعقل هذا؟! حكومتنا تدافع عن عدونا وتصدر له الغاز بسعر أقل من السعر العالمي بكثير وحين تقف مجموعة من الناشطين السياسيين لتنهاها عن ذلك تُصرُّ الحكومة على موقفها!.

وعلى المستوى السياسي الخارجي فإنه عندما تظهر مشكلة ضخمة، كما يحدث فى العراق أو الصومال أو السودان أو لبنان أو على أرض فلسطين، وأردت أن تبحث عن دور لابُدَّ أن تقوم به مصر على اعتبار أنها الدولة الأكبر والأقدم، وهى عماد النظام الإقليميّ، فلن تجد لها وجودًا، إذ لم تعد لها كلمة مسموعة، ولا مقامٌ يعمل له حساب، بل نجد بلدًا مثل قَطَر تأخذ دور القيادة والريادة من مصر وحُقّ لها ذلك؛ لأنهم يملكون الحلول الواقعية لمشكلات الأمة، في فلسطين، ولبنان، وغيرها من بلاد المسلمين.

بالإضافة إلى قضية غزة التي أظهرت السياسة المصرية على حقيقتها وعمالتها للغرب، وجعلت من المصريين مسار تندر لكل الشعوب العربية ولا ذنب لهم، ولكن الرأس يزين أو يشين! فعزرًا لأحبابنا في غزة، وعزرًا لإخواننا المسلمين في كل بقاع الأرض.

والحمد لله أن كشف العرب جميعًا هذه الحقائق فلم يعودوا يغترُّون بالعنصر المصري الذي يفهم كل شيء! بل فضلوا العمالة الأجنبية وبخاصة الأسيوية منها على إخوانهم المصريين الذين أبدعوا في النصب والاحتيال!.

إخواني أهل المحروسة قد أكون قاسيًا بعض الشيء عليكم؛ فلتعلموا أنني واحد منكم، ويؤلمني ما يؤلمكم، ولكن إلى متى سنظل هكذا في نوم عميق! وقد كانت الأمة تعلق آمالها علينا وقد خذلناها بنومنا العميق، وقد يكون السبب في هذا كله إعراضكم عن شريعة ربكم ومنهج نبيكم، فكثر فيكم اللصوص؛ سُرَّاق العقائد وسُرَّاق الأموال، فمصر لم تعد هى هذا البلد

الجميل العظيم، ومصر التى نعيشها الآن بقعة أخرى، ذلك لأن مصر تم بيع الكثير منها، وما زال المزاد مستمرًّا.

أفيقوا أيها المصريون، فيوم أن تعملوا لخدمة دينكم وتنسوا الشعارات الجوفاء المزيفة؛ فإن المجد ينتظركم وينتظر أمتكم الإسلامية الكبيرة.

أنا لا أغض من إمكاناتكم وحقكم، ولكن أنتم –الآن- نيامٌ إن لم تكونوا موائًا، فليس ثمَّ حركة، وليس ثمَّ تقدم يُذكَر، وليس ثمَّ دفع لعجلة الحياة والتطور والنمُوّ.

أفيقوا أيها المصريون من الصفر الكبير الذي تعيشون فيه، فالتغنِّي بالماضي ونحن عبيد أوربَّا عار، والتشدق بمجد الأجداد ونحن أسرى لأمريكا خزي ومهانة.

وكفّوا عن قولكم: "نحن أصحاب حضارة سبعة الآلاف سنة" فهذه حضارة الحجارة، وهذا قول مخالف للشرع والعقل؛ فمن ناحية الشرع فإن تاريخ مصر يبدأ من عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، فتاريخ الإسلام في مصر يناهز ١٤٠٠ سنة لا غير؛ لكنه كان سعدنا ومجدنا وازدهارنا، أما قدماء المصريين وإن كانوا أبدعوا في علوم الحياة الدنيا فقد كانوا عن الآخرة غافلين كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم٧] فعبدوا الأصنام من دون الله، فكيف ننتسب إليهم!.

ومن الناحية العقلية فإننا اليوم لا نستفيد من علمهم شيئًا في الحياة الدنيا، وسبعة الآلاف سنة لم تغن عنَّا من الجهل والتخلُّف والرجعيَّة شيئًا، بل إن حضارة الأمريكان التي لا تتعدى ٤٠٠ سنة قد فاقت حضارات أمم الأرض قاطبة.

كما أن الاعتماد على التاريخ في ادعاء الريادة وحده أمر غير مُجْدٍ، وقديمًا قال شاعر عربى:

ليس الفتى من قال كان أبى ولكن الفتى من قال ها أنا ذا

الريادة جهد متواصل وعطاء مستمر، وموقع متقدم في إنتاج الحضارة، وقدوة ونموذج ومثال. الريادة تميُّز وتفرُّد لا يخضعان لقوانين الميراث والتوارث، وإنما هما دائما مغالبة وعزم، فهل من مجيب؟.

إنَّ الصغير لا يمكن أن يظل صغيرًا دائمًا، والمعطى قد لا تستمر قدرته

على العطاء دائمًا، فبعض الشعوب العربية قد نضجت ووقفت على قدميها، بل وأصبح بعضها متقدمًا علينا فى كثير من الجوانب، ويجب الاعتراف بذلك دون مكابرة، لا للتقليل من قدر أنفسنا وإنما لشحذ الهمم، فعندما نرى أن مَنْ علَّمْنَاهم قد أصبحوا أفضل منا لابُدَّ أن تأخذنا الغَيْرَة والحماس ونسعى إلى أن نعاود فعل الريادة، ولا يكون هذا بمجرد التباهى كلامًا وأغاني؛ وإنما بالكد والجهد والعرق ومواصلة النهوض.

شباب سلفنا الصالحين قدوة للناشئين (٢/١)

الشباب هم عَصَبُ حياة الأمم وسرُّ تقدم الشعوب، وأُمَّةٌ بدون شباب أمَّة بلا مستقبل، فالشباب قوة إن أحْسَنَّا استغلالها وتوجيهها، فشباب اليوم هم رجال الغد، ولما كانت أمة الإسلامة الأولى ملئية بالشباب الصالح الذي تربى على عين آبائه الصحابة الكرام، وتحت سمع وبصر النبي × ، فتحوا الدنيا بأسرها واستعمروها بالعلم النافع والعمل الصالح.

فقد كان النبي × يعتمد عليهم فى الأمور التى تحتاج إلى القوة وبذل الجهد، كالجهاد في سبيل الله، فقد اعتمد على أسامة بن زيد فى إحدى الغزوات وأسلمه قيادة الجيش وكانت سنُّهُ آنذاك ست عشرة سنة، وفي الجيش كبار الصحابة.

فكان × يدربهم على الحروب ويعدهم الإعداد الجيد؛ لأنهم رجال الغد، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِي × وَنَحْنُ شَبَابٌ»(١٠).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ: «أَنَّ النَّبِيَّ × عُرِضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ فَلَمْ يُجِزْهُ وَعُرِضَهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَهُ»(١١).

وعن عامر بن سعد، عن أبيه قال: «رد رسول الله × عمير بن أبي وقاص عن بدر، استصغره، فبكى عمير، فأجازه، فعقدت عليه حمالة سيفه، ولقد شهدت بدرًا وما في وجهي شعرة واحدة أمسحها بيدي»(١٢).

فنشأت هذه الناشئة على حب الجهاد في سبيل والشجاعة من أجل الدفاع عن هذا الدين ونبيه × ؛ فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَوَاقِفٌ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الصَّفِّ نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنْ

---

(١٠) رواه البخارى ٤٦١٥، مسلم ١٤٠٤.

(١١) رواه البخاري ٢٦٦٤، أبو داود ٢٩٥٧، الترمذي ١٣٦١.

(١٢) سير النبلاء ٩٧/١.

الأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ وَمَا حَاجَتُكَ يَا ابْنَ أَخِي قَالَ بَلَغَنِي أَنَّهُ سَبَّ رَسُولَ اللهِّ × وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُهُ لَمْ يُفَارِقْ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا قَالَ فَغَمَزَنِي الآخَرُ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا قَالَ فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ قَالَ فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ فَقُلْتُ لَهُمَا أَلاَ تَرَيَانِ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلاَنِ عَنْهُ فَابْتَدَرَاهُ فَاسْتَقْبَلَهُمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلاَهُ ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللهِّ × فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ أَيُّكُمَا قَتَلَهُ فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَا قَتَلْتُهُ قَالَ هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا قَالاَ لاَ فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِّ × فِي السَّيْفَيْنِ فَقَالَ كِلاَكُمَا قَتَلَهُ وَقَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وَهُمَا مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وَمُعَاذُ ابْنُ عَفْرَاءَ»(١٣)

وهذا الزبير بن العوام حَوَارِيُّ رسول الله، ×، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سل سيفه في سبيل الله، يدافع عن رسول الله × وهو غلام صغير، فعن عروة قال: «نفحت نفحة من الشيطان أن رسول الله أُخذ بأعلى مكة، فخرج الزبير وهو غلام، ابن اثنتي عشرة سنة، بيده السيف، فمن رآه عجب، وقال الغلام معه السيف، حتى أتى النبي × فقال: ما لك يا زبير؟ فأخبره وقال: أتيت أضرب بسيفي من أخذك»(١٤).

وهذا ابنه عبد الله بن الزبير تتجلى شجاعته في وقعة جرجير «وكانت بين البربر والمسلمين؛ وكان المسلمون عشرين ألفًا، والبربر عشرين ومائة ألفٍ، فلما تراءى الجمعان أحاط جيش البربر بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم يُر أشنع منه ولا أخوف عليهم منه، قال عبد الله بن الزبير: فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قائد المعركة فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان، قال: فأمر بهم فحموا

(١٣) رواه البخاري ٣١٤١، مسلم ١٧٥٢.

(١٤) أخرجه الحاكم ٣/٣٦٠، أبو نعيم ١/٨٩ ورجاله ثقات.

ظهري، وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه -وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك- فلما اقتربت منه أحس مني الشرَّ فَفَرَّ على برذونه، فلحقته فطعنته برمحي، وذففت عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فرقوا وفروا كفرار القطا، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالاً كثيرة، وسبيًا عظيمًا»(١٥).

وأما عن حسن عبادتهم فقد كانوا رهبانًا بالليل كما كانوا فرسانًا بالنهار، وكانت عبادتهم لا تقل شأوًا عن جهادهم في سبيل الله، فهذا عَبْدُ اللهِّ بْنُ عَمْرٍو يقول: «جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُهُ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ × : إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْكَ الزَّمَانُ وَأَنْ تَمَلَّ فَاقْرَأْهُ فِي شَهْرٍ فَقُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي عَشْرَةٍ قُلْتُ: دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي قَالَ فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ قُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي فَأَبَى»(١٦).

وفي موقف آخر له يقول: «زَوَّجَنِي أَبِي امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيَّ جَعَلْتُ لا أَنْحَاشُ لَهَا مِمَّا بِي مِنْ الْقُوَّةِ عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ الصَّوْمِ وَالصَّلاةِ فَجَاءَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى كَنَّتِهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: كَيْفَ وَجَدْتِ بَعْلَكِ قَالَتْ خَيْرَ الرِّجَالِ أَوْ كَخَيْرِ الْبُعُولَةِ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا، وَلَمْ يَعْرِفْ لَنَا فِرَاشًا، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَعَذَمَنِي وَعَضَّنِي بِلِسَانِهِ فَقَالَ: أَنْكَحْتُكَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ ذَاتَ حَسَبٍ فَعَضَلْتَهَا وَفَعَلْتَ وَفَعَلْتَ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى النَّبِيِّ × فَشَكَانِي فَأَرْسَلَ إِلَيَّ النَّبِيُّ × فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ لِي: أَتَصُومُ النَّهَارَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَمَسُّ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١٧).

---

(١٥) الكامل لابن الأثير ٣/٩٠ فتوح البلدان١/٢٦٧.

(١٦) رواه البخاري ١٩٧٨، مسلم ١١٥٩، أبو داود ١٣٨٨، الترمذي ٢٩٤٩، النسائي ٢٣٩٠، ابن ماجة ١٣٤٦.

(١٧) رواه البخاري ١١٣١، مسلم ١١٥٩، أبو داود ١٣٨٨، الترمذي ٧٧٠، النسائي ١٦٣٠، ابن ماجة ١٣٤٦.

وهذا علي بن الفضيل بن عياض وكان شابًا من خيرة الشباب، قال عنه الذهبي: «من كبار الأولياء، كان قانتًا لله، خاشعًا، وجلاً، ربانيًّا، كبير الشأن»(١٨).

وروى ابن أبي الدنيا أن فضيل بن عياض قال: «بكى علي ابني فقلت: يا بني ما يبكيك؟ قال: أخاف ألا تجمعنا القيامة»(١٩).

وعنه أن فضيل بن عياض قال: «أشرفت ليلة على عليٍّ، وهو في صحن الدار، وهو يقول: النار، ومتى الخلاص من النار؟ وقال لي: يا أبي سل الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة؛ ثم قال: لم يزل منكسر القلب حزينًا. ثم بكى الفضيل، ثم قال: كان يساعدني على الحزن والبكاء، يا ثمرة قلبي، شكر الله لك ما قد علمه فيك»(٢٠).

وكذا الأئمة الأعلام كأبي حنيفة، النعمان بن ثابت، فقيه العراق، وأحد أئمة الإسلام، والسادة الأعلام، وأحد أركان العلماء، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المعروفة، لهم نصيب من الزهد والورع والتقوى، وحسن العبادة ما سطرته أقلام المؤرخين.

«قال يحيى بن معين عنه: كان ثقة، وكان من أهل الصدق ولم يُتهم بالكذب، ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضيًا.

وهذا من ورعه وخشيته لله، واليوم كثير من الناس لا يتورع عن أن يكون قاضيًا حاكمًا بين الناس! نسأل الله العفو والعافية.

وروى الخطيب البغدادي: أن أبا حنيفة كان يصلي بالليل ويقرأ القرآن في كل ليلة، ويبكي حتى يرحمه جيرانه. وقد مكث أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعين

---

(١٨) سير النبلاء ٨/٤٤٣.

(١٩) الحلية ٨/٢٩٧، سير النبلاء ٨/٤٤٤.

(٢٠) الحلية ٨/٢٩٩، سير النبلاء ٨/٤٤٤.

ألف مرة»[٢١].

وكذا الملوك والأمراء الشباب لهم من هذا نصيب فهذا «الملك العادل نور الدين محمود وقد كان شابًّا مجاهدًا، ورعًا، كثير الصلاة بالليل من وقت السَّحَر إلى أن يركب للجهاد في سبيل الله، وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون تكثر القيام في الليل فنامت ذات ليلة عن وردها فأصبحت وهي غَضْبَى، فسألها نور الدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السَّحَر لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرًا جزيلاً، وجراية كثيرة»[٢٢].

فهنيئًا لهذه الأمة شبابها من العلماء والملوك والأمراء والصناع والعمال الأوفياء، والمجاهدين الأجلاء، والصالحين الأتقياء، وهنيئًا لها دولة العلم والإيمان، والصدق والإخلاص، وهنيئًا لها القوة والمجد والعزة والرفعة.

علو في الحياة وفي المماتِ لحق تلك إحدى المعجزات

فيجب علينا -معاشر المسلمين- تجاه شباب اليوم أن ننمى منهم ما كان صالحًا، ونصلح منهم ما كان فاسدًا، فإذا صلح الشباب وهو أصل الأمة الذى يُبْنى عليه مستقبلها، وكان صلاحه مبنيًّا على دعائم قوية من الدين والأخلاق؛ فسيكون للأمة مستقبل زاهر، ولشيوخها خلفاء صالحون إن شاء الله.

---

(٢١) البداية والنهاية ١٠/١١٠.

(٢٢) البداية والنهاية ١٢/٢٩٩.

شباب سلفنا الصالحين قدوة للناشئين (٢/٢)

في مقالة سابقة تكلَّمنا عن الشباب الذين أبدعهم الإسلام في كافة مجالات الحياة، واعتنينا بأخصِّ خصائص سلفنا الصالح والتي تمثلت في كونهم رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار على علم وبصيرة؛ لذا ذكرنا بعضًا من حياتهم مع الجهاد، والعبادة، وفي هذه المقالة نستأنف ما بدأناه، ونتكلم عما تركناه وقد أبدعه الإسلام في الأُمَّة الأُميَّة، وجعل منها أمة تسيطر على العالم بالعلم النافع والعمل الصالح، وذلك من خلال حياتهم مع العلم والعلماء.

فقد كان × يعتمد على الشباب فى نشر الدعوة فى بدايتها بمكة حيث أقام الدعوة فى دار أحد الشباب وهو ابن الأرقم، ولا شك أن الدعوة تعتمد على العلم ونقل الوحي، فكان الشباب في ذاك الوقت هم نقلة هذا العلم إلى الناس.

فعَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ قَالَ(٢٣): أَتَيْنَا إِلَى النَّبِي × وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَكَانَ رَسُولُ اللهِّ × رَحِيمًا رَفِيقًا فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدْ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ** وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لاَ أَحْفَظُهَا **وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**».

فجعل النَّبي × هؤلاء الشبيبة معلمين لقومهم؛ يؤذنون للصلاة ويقيمونها، ويؤمونهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، وهذا من باب تحميل الشباب بالمسئولية.

وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قال: قدم النبي × المدينة، وأنا ابن إحدى عشرة سنة. فأَمَرَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ قَالَ إِنِّي وَاللهِّ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي قَالَ فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ قَالَ فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ»(٢٤)

---

(٢٣) رواه البخارى ٦٣١، مسلم ٦٧٤، أبو دادود ٥٨٩، الترمذى ٢٠٥، النسائى ٦٣٤، ابن ماجة ٩٧٩.

(٢٤) رواه أبو داود ٣٦٤٥، الترمذي ٢٧١٥، صحيح سنن أبي داود ٣١٨/٣.

ولما أراد أبو بكر وعمر جمع القرآن أثناء حرب الردة كلفاه بهذه المهمة الشاقة، وهذا العمل من أخطر الأعمال فى تاريخ الإسلام تنوء بحمله الجبال.

وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ × إِلَى الْيَمَنِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ تَبْعَثُنِي وَأَنَا شَابٌّ أَقْضِي بَيْنَهُمْ وَلاَ أَدْرِي مَا الْقَضَاءُ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ وَثَبِّتْ لِسَانَهُ**» قَالَ: فَمَا شَكَكْتُ بَعْدُ فِي قَضَاءٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ.(٢٥)

فاعتمد النَّبِي × على عَلِيٍّ؛ وهو شاب فى منصب من أخطر المناصب وهو القضاء بين الناس لما لهذا المنصب من الجهد والبحث المتواصل عن الحقائق، وتعلم الفقه والعلوم التى بها يقضي بين الناس ولا يتأتى هذا إلا على يد شاب عاقل قوى التحمل رابط الجأش.

وإذا ذُكر العلم ذُكر ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، فعنه رضي الله عنه قال: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ × قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ يَا فُلاَنُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ × فَإِنَّهُمْ الْيَوْمَ كَثِيرٌ فَقَالَ: وَا عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ × مَنْ تَرَى فَتَرَكَ ذَلِكَ وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ وَهُوَ قَائِلٌ فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي فَيَقُولُ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ مَا جَاءَ بِكَ أَلا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ فَأَقُولُ لا أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ فَأَسْأَلُهُ عَنْ الْحَدِيثِ قَالَ فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ فَقَالَ كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي»(٢٦).

لذا كان عمر رضي الله عنه يجلسه معه ومع أكابر الصحابة، ويستشيره في الأمر إذا أهمه، ويقول: غص غواص»(٢٧).

وعن الشعبي قال: قيل لابن عباس: أنى أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان

---

(٢٥) رواه أبو داود ٣٥٨٢، الترمذى ١٣٣١، ابن ماجة ٢٣١٠، صحيح سنن ابن ماجة ٢/٧٧٤.

(٢٦) رواه الدارمي ٥٧٠، ورجاله ثقات.

(٢٧) سير النبلاء ٣/٣٤٦.

سؤول، وقلب عقول»[٢٨].

وهذا معاذ بن جبل يقول عنه أبو سلمة الخولاني: دخلت مسجد حمص، فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من الصحابة، فإذا فيهم شاب أكحل العينين، براق الثنايا ساكت، فإذا امترى القوم، أقبلوا عليه، فسألوه، فقلت: من هذا؟ قيل: معاذ بن جبل، فوقعت محبته في قلبي»[٢٩].

وهذا عثمان بن أبي العاص الأمير الفاضل المؤتمن. أبو عبد الله الثقفي الطائفي. قدم في وفد ثقيف على النبي × في سنة تسع فأسلموا، وأمره عليهم لما رأى من عقله وحرصه على الخير والدين وكان أصغر الوفد سنًّا»[٣٠].

وهذا سيبويه إمام النحاة، لزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو، ودخل بغداد وناظر الكسائي، وكان شابًّا حسنًا جميلاً، وقد تعلق من كل علم بسبب، وضرب مع كل أهل أدب بسهم، مع حداثة سنه. وقد صنف في النحو كتابًا لا يلحق شأوه، وشرحه أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره، واستخرجوا من دره، ولم يبلغوا إلى قعره، توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة»[٣١]

وهذا سفيان الثوري يقول عنه أبو المثنى: سمعتهم بمرو يقولون: قد جاء الثوري، قد جاء الثوري. فخرجت أنظر إليه، فإذا هو غلام قد بقل وجهه.

قال الذهبي: كان ينوه بذكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه، وحدث وهو شاب. وأجل إسناد للعراقيين: سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله.

وقال شعبة، وابن عيينة، وأبو عاصم، ويحيى بن معين، وغيرهم: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث. وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف ومئة

---

(٢٨) البداية والنهاية ٨/٣٠١.

(٢٩) أخرجه الحاكم ٣ / ٢٦٩، أبو نعيم ١/٢٣٠.

(٣٠) سير النبلاء ٢/٣٧٤.

(٣١) البداية والنهاية ١٠/١٨٢.

شيخ، ما كتبت عن أفضل من سفيان. وعن أيوب السختياني قال: ما لقيت كوفيًّا أفضله على سفيان. وقال البراء بن رتيم: سمعت يونس بن عبيد يقول: ما رأيت أفضل من سفيان»[٣٢].

وهذا الشافعي يولد بغزة، ويموت أبوه وهو صغير فتحمله أمه إلى مكة وهو ابن سنتين، فينشأ بها ويقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، ويحفظ الموطأ وهو ابن عشر، ويفتى وهو ابن خمس عشرة سنة»[٣٣]، وقد أجاز له شيخه مسلم بن خالد الزنجي أن يفتي فقال: أفْتِ يا أبا عبد الله، فقد والله آن لك أن تفْتِيَ، وهو ابن خمس عشرة سنة»[٣٤] قال أبو عبيد: ما رأيت أحدًا أعقل من الشافعي، وكذا قال يونس بن عبد الأعلى، حتى إنه قال: لو جمعت أمة لوسعهم عقله»[٣٥]

وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري الحافظ صاحب الصحيح، إمام أهل الحديث في زمانه، والمقتدى به في أوانه، والمقدم على سائر أضرابه وأقرانه، ولد البخاري رحمه الله في ليلة الجمعة الثالث عشر من شوال سنة أربع وتسعين ومائة، ومات أبوه وهو صغير فنشأ في حجر أمه فألهمه الله حفظ الحديث وهو في المكتب، وقرأ الكتب المشهورة وهو ابن ست عشرة سنة حتى قيل: إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سردًا، وحج وعمره ثماني عشرة سنة؛ فأقام بمكة يطلب بها الحديث، ثم رحل بعد ذلك إلى سائر مشايخ الحديث. وقد كان رحمه الله في غاية الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدنيا دار الفناء، والرغبة في الآخرة دار البقاء.

قال الفلاس: كل حديث لا يعرفه البخاري فليس بحديث. وقال أبو نعيم أحمد بن حماد: هو فقيه هذه الأمة. وقال مرجى بن رجاء: فضل البخاري

---

(٣٢) سير النبلاء ٢٣٦/٧.

(٣٣) البداية والنهاية ٢٦٣/١٠.

(٣٤) تاريخ بغداد ٦٤/٢، سير النبلاء ١٦/١٠.

(٣٥) المناقب للبيهقي ١٨٥/٢، سير النبلاء ١٥/١٠.

على العلماء كفضل الرجال على النساء - يعني في زمانه. وقال: هو آية من آيات الله تمشي على الأرض. وقال الدارمي: محمد بن إسماعيل البخاري أفقهنا وأعلمنا وأغوصنا وأكثرنا طلبًا. وقال إسحاق بن راهويه: هو أبصر مني. وقال أبو حاتم الرازي: محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق.

وكان يختم القرآن في كل ليلة من رمضان ختمة، وكان له مال جيد ينفق منه سرًّا وجهرًا، وكان يكثر الصدقة بالليل والنهار، وكان مستجاب الدعوة مسدد الرمية شريف النفس»(٣٦)

وهذا ابن الجوزي الحنبلي، مات أبوه وعمره ثلاث سنين، فلما ترعرع لزم الشيخ محمد بن ناصر الحافظ وقرأ عليه وسمع عليه الحديث وتفقه بابن الزاغوني، وحفظ الوعظ ووعظ وهو ابن عشرين سنة أو دونها، وكان وهو صبي دينا مجموعًا على نفسه لا يخالط أحدًا ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظمًا ونثرًا، وبالجملة كان أستاذًا فردًا في الوعظ وغيره.

جمع المصنفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحوًا من مائتي مجلد، وتفرد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه وغوصه على المعاني البديعة»(٣٧).

وهذا ابن تيمية يبدأ درسه وكان عمره اثنين وعشرين سنة، وحضر عنده قاضي القضاة، وشيخ الشافعية، وكبار الأعيان والشيوخ، وكان درسًا هائلاً، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده، وكثرة ما استحسنه الحاضرون. وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنه وصغره.

---

(٣٦) البداية والنهاية ٢٧/١١.

(٣٧) البداية والنهاية ٣١/١٣.

وكان درسه بعد ذلك يجتمع به الخلق الكثير والجم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة، وقد سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان»[٣٨]

أيها الإخوة الكرام: هذا غيض من فيض، وفي سيرة سلفنا الصالح من الشباب ما يجل عن الحصر، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق، وعلى شبابنا وناشئينا الاهتمام والعناية بهذه السيرة المباركة واتخاذهم قدوة؛ حتى يلحقوا بركبهم وينهلوا شيئًا من بركاتهم التي حلت عليهم بفضل جهادهم وعبادتهم، وعلمهم.

فأسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يرزق الأمة شبابًا كهؤلاء؛ ليستأنفوا إعادة بناء تاريخ الأمة التليد المجيد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(٣٨) البداية والنهاية ١٣/ ٣٢٠.

امْتِثالُ السلفِ الأبْرارِ لأمْرِ النَّبيِّ المختارِ(٢/١)

لقد ضرب سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين أروع الأمثلة في الامتثال لأمره ×، وكان أمره × يتنزل عليهم بردًا وسلامًا أينما وجدوا وعلى أي حال كانوا، فيجدون في قلوبهم همة على تنفيذه والقيام به، فمن ذلك أنهم نفذوا ما أمر به أو جاء عنه حتى وهم ركوع فعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ × «كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَخْوَالِهِ مِنْ الأَنْصَارِ وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلاَّهَا صَلاَةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ × قِبَلَ مَكَّةَ فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ»(٣٩).

وكان × يعلم صحابته الكرام أن طاعته من طاعة الله عز وجل، وكان موقفه × في هذا يصدر عن حبه إياهم وخوفه عليهم من أن يكون عدم طاعتهم إياه سببًا في أن يحول الله بينهم وبين قلوبهم، وتحول نعمته عنهم فيكونوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى أَنَّ النَّبِيَّ × مَرَّ بِهِ وَهُوَ يُصَلِّي فَدَعَاهُ قَالَ فَصَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجِيبَنِي قَالَ كُنْتُ أُصَلِّي قَالَ أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ»(٤٠)

فكان هذا الامتثال، وكانت هذه الطاعة لأمره × ديدنهم في الحياة، فطاعته هي الخير كله، ولم يزل الصحابة الكرام بعد موته × على النهج سائرين، فحفظوا العهد الذي فارقهم عليه × وهو السمع والطاعة في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، وفي الشدة والرخاء، فمن ذلك ما رواه عِيَاضُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: جَاءَ أَبُو سَعِيدٍ وَمَرْوَانُ يَخْطُبُ فَقَامَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ فَأَتَاهُ الْحَرَسُ يَمْنَعُونَهُ فَقَالَ مَا كُنْتُ أَتْرُكُهُمَا وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ×

---

(٣٩) رواه البخاري ٤١، مسلم ٢٥٢، الترمذي ٣٤٠، النسائي ٤٨٨، ابن ماجة ١٠١٠.

(٤٠) رواه مسلم ٨٠٦، النسائي ٩١٢.

يَأْمُرُ بِهِمَا»(٤١)

فقد كان مروان بن الحكم أميرًا على المدينة، وكان يقدم خطبة العيد على الصلاة بدعوى أن الناس لا يجلسون له إن صلى قبل الخطبة فقدم الخطبة على الصلاة وهذا مخالفٌ لهدي المصطفى ×، وكان أبو سعيد يأتمر بأمره × حيًّا وميتًا، وإن أزعج هذا الأمراء.

وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ إِذْ كَانَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ × صَاعًا مِنْ طَعَامٍ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاوِيَةُ الْمَدِينَةَ فَكَانَ فِيمَا كَلَّمَ بِهِ النَّاسَ أَنْ قَالَ لاَ أُرَى مُدَّيْنِ مِنْ سَمْرَاءِ الشَّامِ إِلاَّ تَعْدِلُ صَاعًا مِنْ هَذَا فَأَخَذَ النَّاسُ بِذَلِكَ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ لاَ أَزَالُ أُخْرِجُهُ كَمَا كُنْتُ أُخْرِجُهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ × أَبَدًا مَا عِشْتُ»(٤٢)

ولم يكن معاوية رضي الله عنه مخالفًا للسنة ولكنه اجتهاد رآه، ولكنَّ هذا الاجتهاد لم يعجب أبا سعيد وفضل التمسك بهدي النبي ×.

ومعاوية كان من الوقافين عند سُنَّة المصطفى × ممتثلا لأمره فعن جبير بن نفير أنه سمع معاوية يقول: قال رسول الله × له: إنك إذا اتبعت الريبة في الناس أفسدتهم. قال معاوية: فإني لا أتبع الريبة فيهم فأفسدهم»(٤٣)

وعن سُلَيْمَ بْنَ عَامِرٍ قال: كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ أَهْلِ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ فِي بِلاَدِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ أَغَارَ عَلَيْهِمْ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لاَ غَدْرٌ وَإِذَا هُوَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَقُولُ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَحُلَّنَّ عَهْدًا وَلاَ يَشُدَّنَّهُ حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ قَالَ فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ

---

(٤١) رواه الترمذي ٥١١، النسائي ١٤٠٨، ابن ماجة ١١١٣، صحيح الترمذي ٣٨٥/٢.

(٤٢) رواه البخاري ١٥٠٥، مسلم ٩٨٥، أبو داود ١٦١٦، الترمذي ٦٧٣، النسائي/ ٢٥١١.

(٤٣) صحيح الأدب المفرد ٩٦/١.

بِالنَّاسِ»(٤٤)

وعَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ فَإِذَا عَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غُلاَمِهِ مِثْلُهُ فَقُلْنَا يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ أَخَذْتَ بُرْدَ غُلاَمِكَ إِلَى بُرْدِكَ فَكَانَتْ حُلَّةً وَكَسَوْتَهُ ثَوْبًا غَيْرَهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَقُولُ إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيَكْسُهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلاَ يُكَلِّفُهُ مَا يَغْلِبُهُ فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ»(٤٥)

وعن عَلِيِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ بَلَغَ مُصْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ عَنْ عَرِيفِ الأَنْصَارِ شَيْءٌ فَهَمَّ بِهِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَقَالَ لَهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَقُولُ اسْتَوْصُوا بِالأَنْصَارِ خَيْرًا أَوْ قَالَ مَعْرُوفًا اقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ فَأَلْقَى مُصْعَبٌ نَفْسَهُ عَنْ سَرِيرِهِ وَأَلْزَقَ خَدَّهُ بِالْبِسَاطِ وَقَالَ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ × عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ فَتَرَكَهُ»(٤٦)

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ × فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى قَالَ حَكِيمٌ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا فَقَالَ عُمَرُ إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ × حَتَّى تُوُفِّيَ»(٤٧)

---

(٤٤) رواه أبو داود ٢٧٥٩، الترمذي ١٥٨٠، صحيح الترمذي ١٤٣/٤.

(٤٥) رواه البخاري ٣٠، مسلم ١٦٦١، أبو داود ٥١٥٨، الترمذي ١٩٤٥، ابن ماجة ٣٦٩٠.

(٤٦) رواه أحمد ١٣١١٦، السلسلة الصحيحة ٩١٦.

(٤٧) رواه البخاري ١٤٧٢، مسلم ١٠٣٥، أبو داود ١٦٧٦، الترمذي ٢٤٦٣، النسائي ٢٥٣١.

وعَنْ أَبِي قَيْسٍ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ يَأْمُرُنَا أَنْ نَصْنَعَ لَهُ الطَّعَامَ يَتَسَحَّرُ بِهِ فَلاَ يُصِيبُ مِنْهُ كَثِيرًا فَقُلْنَا لَهُ تَأْمُرُنَا بِهِ وَلاَ نُصِيبُ مِنْهُ كَثِيرًا قَالَ إِنِّي لاَ آمُرُكُمْ بِهِ أَنِّي أَشْتَهِيهِ وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَقُولُ فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ»(١)

وعن أَبَي هُرَيْرَةَ قال: أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلاَثٍ لَسْتُ بِتَارِكِهِنَّ أَنْ لاَ أَنَامَ إِلاَّ عَلَى وِتْرٍ وَأَنْ أَصُومَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَأَنْ لاَ أَدَعَ رَكْعَتَيْ الضُّحَى»(٢)

الضُّحَى»(٢)

وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ × حَتَّى وَضَعَ قَدَمَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ فَاطِمَةَ فَعَلَّمَنَا مَا نَقُولُ إِذَا أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ تَسْبِيحَةً وَثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ تَحْمِيدَةً وَأَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ تَكْبِيرَةً قَالَ عَلِيٌّ فَمَا تَرَكْتُهَا بَعْدُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ قَالَ وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ»(٣)

وعن وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَقَدَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَقُولُ نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ وَأَخُو الْعَشِيرَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَسَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ سَلَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ»(٤)

وقد يكون امتثال أمر النبي × في أمر من الأمور التعبدية سهلاً ميسورًا وقد يستطيعه كثير من الناس، أما أن يأمر النبي × أحدهم بالتنازل عن ماله فهذا صعب عسير على النفوس التي جُبلت على حب المال؛ قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر٢٠] ولكن الصحابة نجحوا أيما نجاح في هذه الاختبارات الشاقة، فمن ذلك ما رواه كَعْبٌ بن مالك أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ × وَهُوَ فِي

---

(١) رواه مسلم ١٠٩٦، أبو داود ٢٣٤٣، الترمذي ٧٠٩، النسائي ٢١٦٦.

(٢) رواه البخاري ١١٧٨، مسلم ٧٢١، أبو داود ١٤٣٢، الترمذي ٧٦٠، النسائي ١٦٧٧.

(٣) رواه البخاري ٣١١٣، مسلم ٢٧٢٧، أبو داود ٥٠٦٢، الترمذي ٣٤٠٩.

(٤) رواه أحمد ٤٤، صحيح الجامع ٣٢٠٧.

بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا فَكَشَفَ سِتْرَ حُجْرَتِهِ فَنَادَى يَا كَعْبُ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ × قَالَ ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا وَأَوْمَأَ إِلَى الشَّطْرِ قَالَ قَدْ فَعَلْتُ قَالَ قُمْ فَاقْضِهِ»[١]

ولم يكتف الصحابة بأن يأمر × بلسانه بل كانت أعينهم على إشارته ولحظه يجيبونه فيما أشار، وينقادون له فيما لحظهم به، فمن ذلك أن رجلا أتى النبي × وفي يده خاتم من ذهب فأعرض النبي × عنه فلما رأى الرجل كراهيته ذهب فألقى الخاتم وأخذ خاتمًا من حديد فلبسه وأتى النبي × قال هذا شرٌ، هذا حلية أهل النار فرجع فطرحه ولبس خاتمًا من ورق فسكت عنه النبي ×»[٢]

ووصل الحال ببعض الصحابة أن يكون لهم فهم خاص لكلام النبي × قد لا يستسيغه كثير من الناس ولكنها الفهوم العالية الواثقة بكلام نبيها، المؤمنة به، فمن ذلك ما رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ × إِنَّ اللَّهَ مَعَ الدَّائِنِ حَتَّى يُقْضَى دَيْنُهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيمَا يَكْرَهُ اللَّهُ. قَالَ الرواة: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ يَقُولُ لِخَازِنِهِ ادْهَبْ فَخُذْ لِي بِدَيْنٍ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَبِيتَ لَيْلَةً إِلاَّ وَاللَّهُ مَعِي بَعْدَمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ × »[٣]

وما أصعب الأمر حين يُخير الإنسان بين مرضاة رسول الله × ومرضاة من يحبه رسول الله × كفاطمة ابنته رضي الله عنها، وقد وقع في هذا الاختبار الصعب أبو بكر الصديق ولكنه نجح نجاحًا باهرًا كعادته رضي الله عنه، فعن عائشة قالت: لما توفي × تعلقت فاطمة آمالها بميراثه، وجاءت تطلب ذلك من أبي بكر الصديق، فحدثها أنه سمع النبي × يقول: "لا نورث، ما تركنا صدقة" فوجدت عليه، ثم تعللت.

فلما مرضت دخل عليها أبو بكر يترضاها، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل

---

(١) رواه البخاري ٤٥٧، مسلم ١٥٥٨، أبو داود ٣٥٩٥، ابن ماجة ٢٤٢٩.

(٢) صحيح الأدب المفرد ٣٥٢/١.

(٣) رواه ابن ماجة ٢٥٩٥، السلسلة الصحيحة ١٠٠٠.

البيت. قال: ثم ترضاها حتى رضيت»[١]

وكانت هذه الأزمان أزمان تقييم الرجال على أساس الالتزام بالسنة والمحافظة على تطبيقها، وكان الإهمال في تطبيقها سببًا رئيسًا للخصام بين الناس حتى لو كانوا أقرباء، فالمدار على الامتثال لأمره × والمحافظة عليه، ولم يكن ثَمَّ نفاق اجتماعي كما يحدث بين المسلمين اليوم، حيث تجد الرجل مضيعًا للصلاة والصيام وسائر العبادات، ولا ينتهي عما نهى الله ورسوله عنه من الغيبة والنميمة وتجد الناس يبشون في وجهه ويقولون له القول الحسن، كأن جرمًا عظيمًا لم يحدث، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن الصحابة ما كان عندهم ذلك، يدل على هذا ما رواه نَافِعٍ قَالَ كَانَ لِابْنِ عُمَرَ صَدِيقٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يُكَاتِبُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ الْقَدَرِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَقُولُ إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ»[٢]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَذَكَرَ ابْنُ السَّرْحِ قِصَّةَ تَخَلُّفِهِ عَنْ النَّبِيِّ × فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ × الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ثُمَّ سَاقَ خَبَرَ تَنْزِيلِ تَوْبَتِهِ»[٣]

وعَنْ خِرَاشِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَتًى يَخْذِفُ فَقَالَ لَهُ شَيْخٌ لاَ تَخْذِفْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × نَهَى عَنْ الْخَذْفِ فَغَفَلَ الْفَتَى وَظَنَّ أَنَّ الشَّيْخَ لاَ يَفْطِنُ لَهُ فَخَذَفَ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ أُحَدِّثُكَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَنْهَى عَنْ الْخَذْفِ ثُمَّ تَخْذِفُ وَاللَّهِ لاَ أُشْهَدُ لَكَ جَنَازَةً وَلاَ أَعُودُكَ فِي مَرَضٍ وَلاَ أُكَلِّمُكَ أَبَدًا»[٤]

---

(١) سير النبلاء ٢/١٢٠.

(٢) رواه أبو داود ٤٦١٣، ابن ماجة ٤٠٦١، صحيح أبي داود ٤/٢٠٤.

(٣) رواه البخاري ٢٧٥٨، مسلم ٢٧٦٩، أبو داود ٤٦٠٠، النسائي ٧٣١.

(٤) رواه البخاري ٥٤٧٩، مسلم ١٩٥٤، أبو داود ٢٧، النسائي ٣٦، ابن ماجة ٣٢٢٧.

ولما امتثل الصحابة لأمره × بارك الله لهم في حياتهم وأعمالهم وأوقاتهم وأرزاقهم فمن ذلك ما رواه صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ × قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ × إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً بَعَثَهَا مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ قَالَ فَكَانَ صَخْرٌ هَذَا الرَّجُلُ رَجُلاً تَاجِرًا فَكَانَ يَبْعَثُ غِلْمَانَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فَكَثُرَ مَالُهُ»(١)

فهل لخلف هذا السلف من عودة حميدة إلى دين الإسلام واتباع سنة خير الأنام، والتمسك بأمره × والانتهاء عما نهى عنه، لنسعد في الدارين؟!

(١) رواه أبو داود ٢٦٠٦، صحيح أبي داود ٣/٣٥.

امتثال السلف الأبرار لأمر النبيِّ المختار (٢/٢)

تكلمنا في مقالة سابقة عن امتثال الصحابة لأمره × وضربنا لذلك الأمثال، ولما كانت الأمثلة كثيرة رأينا أن نُتبِعَهَا أختها، فقد كانت حياتهم كلها امتثالاً لأمره × فلم يكن في حياتهم غيره، ولم يكن في خواطرهم سواه!، وقد كان تقليدهم إياه أمرًا نابعًا من الامتثال والإذعان لأمره × فعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ اتَّخَذَ رَسُولُ اللهِّ × خَاتَمَ الذَّهَبِ فَلَبِسَهُ رَسُولُ اللهِّ × فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ الذَّهَبِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ × إِنِّي كُنْتُ أَلْبَسُ هَذَا الْخَاتَمَ وَإِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا فَنَبَذَهُ فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ»(١)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِّ × يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ فَخَلَعُوا نِعَالَهُمْ فَلَمَّا قَضَى صَلاَتَهُ قَالَ مَا حَمَلَكُمْ عَلَى إِلْقَائِكُمْ نِعَالَكُمْ قَالُوا رَأَيْنَاكَ خَلَعْتَ فَخَلَعْنَا قَالَ إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي أَوْ آتٍ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا أَذًى أَوْ قَذَرًا فَإِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيُقَلِّبْ نَعْلَيْهِ فَإِنْ رَأَى فِيهِمَا أَذًى فَلْيُمِطْ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا»(٢)

وهناك أمور عجيبة قام بها الصحابة الكرام تدل دلالة واضحة على الطاعة والامتثال قد لا تستسيغها عقول المسلمين اليوم ولكنهم الصحابة الكرام!، فعَنْ جَابِرٍ قَالَ لَمَّا اسْتَوَى رَسُولُ اللهِّ × يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَالَ اجْلِسُوا فَسَمِعَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَجَلَسَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَرَآهُ رَسُولُ اللهِّ × فَقَالَ تَعَالَ يَا عَبْدَ اللهِّ بْنَ مَسْعُودٍ»(٣)

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِّ × مَنْ يَتَقَبَّلُ لِي بِوَاحِدَةٍ وَأَتَقَبَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ قُلْتُ أَنَا قَالَ لاَ تَسْأَلْ النَّاسَ شَيْئًا قَالَ فَكَانَ ثَوْبَانُ يَقَعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ فَلاَ

---

(١) رواه البخاري٥٨٦٥، مسلم ٢٠٩١، أبو داود ٤٢٢٧، الترمذي ١٧٤١، النسائي ٥١٦٤، ابن ماجة ٣٦٤٥.

(٢) رواه أبو داود ٦٥٠، إرواء الغليل ٢٨٤.

(٣) رواه أبو داود ١٠٩١، صحيح أبي داود ٢٨٦/١.

يَقُولُ لأَحَدٍ نَاوِلْنِيهِ حَتَّى يَنْزِلَ فَيَأْخُذَهُ»(١)

وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ × يَقُولُ لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ وَلأَخَّرْتُ صَلاَةَ الْعِشَاءِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ قَالَ فَكَانَ زَيْدُ بْنُ خَالِدٍ يَشْهَدُ الصَّلَوَاتِ فِي الْمَسْجِدِ وَسِوَاكُهُ عَلَى أُذُنِهِ مَوْضِعَ الْقَلَمِ مِنْ أُذُنِ الْكَاتِبِ لاَ يَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ إِلاَّ اسْتَنَّ ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى مَوْضِعِهِ»(٢)

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِّ × مِنْ ثَنِيَّةِ أَذَاخِرَ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَعَلَيَّ رَيْطَةٌ مُضَرَّجَةٌ بِالْعُصْفُرِ فَقَالَ مَا هَذِهِ فَعَرَفْتُ مَا كَرِهَ فَأَتَيْتُ أَهْلِي وَهُمْ يَسْجُرُونَ تَنُّورَهُمْ فَقَذَفْتُهَا فِيهِ ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ الْغَدِ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِّ مَا فَعَلَتْ الرَّيْطَةُ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ أَلاَ كَسَوْتَهَا بَعْضَ أَهْلِكَ فَإِنَّهُ لاَ بَأْسَ بِذَلِكَ لِلنِّسَاءِ»(٣)

وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ قَالَ جَاءَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِّ × فَقَالُوا إِنَّ نَاسًا مِنْ الْمُصَدِّقِينَ يَأْتُونَنَا فَيَظْلِمُونَنَا قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ × أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ قَالَ جَرِيرٌ مَا صَدَرَ عَنِّي مُصَدِّقٌ مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِّ × إِلاَّ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ»(٤)

وبعث النبي × أَبَا مُوسَى عَلَى الْيَمَنِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ مُعَاذٌ قَالَ انْزِلْ وَأَلْقَى لَهُ وِسَادَةً وَإِذَا رَجُلٌ عِنْدَهُ مُوثَقٌ قَالَ مَا هَذَا قَالَ هَذَا كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ ثُمَّ رَاجَعَ دِينَهُ دِينَ السُّوءِ قَالَ لاَ أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ قَضَاءُ اللهِّ وَرَسُولِهِ قَالَ اجْلِسْ نَعَمْ قَالَ لاَ أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ قَضَاءُ اللهِّ وَرَسُولِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ»(٥)

---

(١) رواه أبو داود ١٦٤٣، النسائي ٢٥٩٠، ابن ماجة ١٨٣٧، صحيح الترغيب ٨١٣.

(٢) رواه أبو داود ٤٧، الترمذي ٢٣، المشكاة ٣٩٠.

(٣) رواه أبو داود ٤٠٦٦، ابن ماجة ٣٦٠٣، صحيح أبي داود ٥٢/٤.

(٤) رواه مسلم ٩٨٩، أبو داود ١٥٨٩، الترمذي ٦٤٧، النسائي ١٤٦٠.

(٥) رواه البخاري ٦٩٢٣، مسلم ١٧٣٣، أبو داود ٤٣٥٤، النسائي ٤.

وعَنْ أَبِي لَبِيدٍ قَالَ كُنَّا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ بِكَابُلَ فَأَصَابَ النَّاسُ غَنِيمَةً فَانْتَهَبُوهَا فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ × يَنْهَى عَنْ النُّهْبَى فَرَدُّوا مَا أَخَذُوا فَقَسَمَهُ بَيْنَهُمْ»(١)

وعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهَا تَقُولُ كَانَ النَّبِيُّ × سَهِرَ فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ قَالَ لَيْتَ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِي صَالِحًا يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ إِذْ سَمِعْنَا صَوْتَ سِلاَحٍ فَقَالَ مَنْ هَذَا فَقَالَ أَنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ جِئْتُ لأَحْرُسَكَ وَنَامَ النَّبِيُّ × »(٢)

وها هنا وقفة مع عمر بن الخطاب وآله فقد كان رضي الله عنه وأرضاه آية من آيات الامتثال والوقف على أمره × والملاحظة لما يكون منه × من أمر أو نهي أو إقرار حتى إن كان هذا على حساب الأهل والولد، فعن ابن عمر قال: فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي، فكلمته في ذلك، فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله منك، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله، × ، من أبيك»(٣)

وعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِّ × أَدْرَكَهُ وَهُوَ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ فَقَالَ إِنَّ اللهَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِّ أَوْ لِيَسْكُتْ، قَالَ عُمَرُ فَوَاللهِّ مَا حَلَفْتُ بِهَذَا ذَاكِرًا وَلاَ آثِرًا»(٤)

وعَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ قال لَمَّا بَلَغَ عُمَرُ سَرَغَ حُدِّثَ أَنَّ بِالشَّامِ وَبَاءً شَدِيدًا قَالَ بَلَغَنِي أَنَّ شِدَّةَ الْوَبَاءِ فِي الشَّامِ فَقُلْتُ إِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ حَيٌّ اسْتَخْلَفْتُهُ فَإِنْ سَأَلَنِي اللهُّ لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ × قُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَكَ × يَقُولُ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَمِينًا وَأَمِينِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَنْكَرَ الْقَوْمُ ذَلِكَ وَقَالُوا مَا بَالُ عُلَيَا قُرَيْشٍ يَعْنُونَ بَنِي فِهْرٍ ثُمَّ قَالَ فَإِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي وَقَدْ تُوُفِّيَ أَبُو عُبَيْدَةَ اسْتَخْلَفْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ فَإِنْ سَأَلَنِي رَبِّي

---

(١) رواه أبو داود ٢٧٠٣، صحيح أبي داود ٦٦/٣.

(٢) رواه البخاري ٢٨٨٥، مسلم ٢٤١٠، الترمذي ٣٧٥٦.

(٣) سير النبلاء ٢٢٨/١، وذكره الحافظ في الاصابة ٥٠/٤ وقال: صحيح.

(٤) رواه البخاري ٦١٠٨، مسلم ١٦٤٦، أبو داود ٣٢٤٩، الترمذي ١٥٣٣، النسائي ٣٧٦٦، ابن ماجة ٢٠٩٤.

عَزَّ وَجَلَّ لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ قُلْتُ سَمِعْتُ رَسُولَكَ × يَقُولُ إِنَّهُ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْ الْعُلَمَاءِ نَبْذَةً»(١)

وعَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ لَمَّا أَقْبَلَ أَهْلُ الْيَمَنِ جَعَلَ عُمَرُ يَسْتَقْرِي الرِّفَاقَ فَيَقُولُ هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ قَرَنٍ حَتَّى أَتَى عَلَى قَرَنٍ فَقَالَ مَنْ أَنْتُمْ قَالُوا قَرَنٌ فَوَقَعَ زِمَامُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَوْ زِمَامُ أُوَيْسٍ فَنَاوَلَهُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ فَعَرَفَهُ فَقَالَ عُمَرُ مَا اسْمُكَ قَالَ أَنَا أُوَيْسٌ فَقَالَ هَلْ لَكَ وَالِدَةٌ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَهَلْ كَانَ بِكَ مِنْ الْبَيَاضِ شَيْءٌ قَالَ نَعَمْ فَدَعَوْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَذْهَبَهُ عَنِّي إِلاَّ مَوْضِعَ الدِّرْهَمِ مِنْ سُرَّتِي لأَذْكُرَ بِهِ رَبِّي قَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اسْتَغْفِرْ لِي قَالَ أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِي أَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ × »(٢)

وعَنْ عَابِسِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ رَأَيْتُ عُمَرَ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ فَقَالَ: إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِّ × يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ ثُمَّ دَنَا مِنْهُ فَقَبَّلَهُ»(٣)

وهذا ابنه عبد الله بن عمر بن الخطاب ينشأ على حب رسول الله × والامتثال لأمره فكان رضي الله عنه يطيعه حيًّا وميتًا، فعَنْه رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِّ × قَالَ اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ وَذَا الطُّفْيَتَيْنِ وَالأَبْتَرَ فَإِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ وَيُسْقِطَانِ الْحَبَلَ. قَالَ سَالِمٍ بن عَبْدِ اللهِّ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِّ يَقْتُلُ كُلَّ حَيَّةٍ وَجَدَهَا فَأَبْصَرَهُ أَبُو لُبَابَةَ أَوْ زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ يُطَارِدُ حَيَّةً»(٤)

وعَنْه رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِّ × قَالَ أَجِيبُوا الدَّاعِيَ إِذَا دُعِيتُمْ. قَالَ نَافِعٍ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِّ يَأْتِي الدَّعْوَةَ فِي الْعُرْسِ وَفِي غَيْرِ الْعُرْسِ وَيَأْتِيهَا وَهُوَ صَائِمٌ»(٥)

---

(١) رواه أحمد ١٠٦، السلسلة الصحيحة ١٠٩١.

(٢) رواه مسلم ٢٥٤٢، أحمد ٢٦٨.

(٣) رواه البخاري ١٥٩٧، مسلم ١٢٧٠، أبو داود ١٨٧٣، الترمذي ٨٦٠، النسائي ٢٩٣٧، ابن ماجة ٢٩٤٣.

(٤) رواه البخاري ٣٢٩٩، مسلم ٢٢٣٣، أبو داود ٥٢٥٢، ابن ماجة ٣٥٣٥.

(٥) رواه البخاري ٥١٧٣، مسلم ١٤٢٩، أبو داود ٣٧٣٦، الترمذي ١٠٩٨، ابن ماجة ١٩١٤.

وعَنْه رضي الله عنه قَالَ كُنْتُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ × وَمَا لِي مَبِيتٌ إِلاَّ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ × وَكَانَ النَّبِيُّ × إِذَا أَصْبَحَ يَأْتُونَهُ فَيَقُصُّونَ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا قَالَ فَقُلْتُ مَا لِي لاَ أَرَى شَيْئًا فَرَأَيْتُ كَأَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ فَيُرْمَى بِهِمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ فِي رَكِيٍّ فَأُخِذْتُ فَلَمَّا دَنَا إِلَى الْبِئْرِ قَالَ رَجُلٌ خُذُوا بِهِ ذَاتَ الْيَمِينِ فَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ هَمَّتْنِي رُؤْيَايَ وَأَشْفَقْتُ مِنْهَا فَسَأَلْتُ حَفْصَةَ عَنْهَا فَقَالَتْ نِعْمَ مَا رَأَيْتَ فَقُلْتُ لَهَا سَلِي النَّبِيَّ × فَسَأَلَتْهُ فَقَالَ نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ، قَالَ نَافِعٌ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُصَلِّي اللَّيْلَ»(١)

وعَنْه رضي الله عنه قَالَ كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ وَكُنْتُ أُحِبُّهَا وَكَانَ أَبِي يُبْغِضُهَا فَذَكَرَ ذَلِكَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ × فَأَمَرَنِي أَنْ أُطَلِّقَهَا فَطَلَّقْتُهَا»(٢)

وعَنْه رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ ×: لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّسَاءِ. قَالَ نَافِعٌ: فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابْنُ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ»(٣)

وكان رضي الله عنه يعلم أولاده الامتثال لأمره × ومن يخالف منهم ذلك يعنفه تعنيفًا شديدًا، فعَنْه رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ × يَقُولُ لاَ تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا. قَالَ سَالِمٌ: فَقَالَ بِلاَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِّ وَاللهِّ لَنَمْنَعُهُنَّ قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِّ فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَقَالَ أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِّ × وَتَقُولُ وَاللهِّ لَنَمْنَعُهُنَّ»(٤)

هؤلاء هم الصحب الكرام والجيل الذي مكن الله له في الأرض بفضل الامتثال والطاعة لأمره × فهل لنا مسلمُو القرن الخامس عشر من عودة حميدة إلى ديننا وسنة نبينا نستجلي منها طريقًا لحياتنا الدنيا لنصل إلى علو في الحياة وفي الممات.

---

(١) رواه البخاري ٢٣، مسلم ٢٣٩٠، الترمذي ٢٢٨٥، النسائي ٥٠١١.

(٢) رواه أبو داود ٥١٣٨، الترمذي ١١٨٩، ابن ماجة ٢٠٨٨، صحيح ابن ماجة ٦٧٥/١.

(٣) رواه أبو داود ٤٦٢، الثمر المستطاب ٤٨٥/١.

(٤) رواه البخاري ٨٦٥،مسلم ٤٤٢، أبو داود ٥٦٦، الترمذي ٥٧٠، النسائي ٧٠٦، ابن ماجة ١٦.

ملح الآياتِ القرآنيَّة في حياةِ سلفِنا العمليَّة

لقد تَمَتَّعَ سلفنا الصالح بحسٍّ واعٍ تجاه الآيَات القرآنية والسنن النبوية، فطبقوها في الحياة العملية، فلم تكن الحياة خارج المسجد بمعزل عنه، ولم تكن الحياة العملية في جانب والدين في جنب آخر، بل كلاهما يكمل الآخر، فكان تفاعلهم مع الآيات القرآنية والسنن النبوية يظهر في حركاتهم وسكناتهم، فهذا عبد الله بن عمر يتفاعل مع قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران٩٢] "فكان إذا أعجبه شيء من ماله يقربه إلى الله عز وجل وكأن عبيده قد عرفوا ذلك منه فربما لزم أحدهم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه فيقال له: إنهم يخدعونك، فيقول: من خدعنا لله انخدعنا له، وكان له جارية يحبها كثيرًا فأعتقها وزوجها لمولاه نافع، وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران٩٢]، واشترى مرة بعيرًا فأعجبه لما ركبه فقال: يا نافع أدخله في إبل الصدقة، وأعطاه ابن جعفر في نافع عشرة آلاف فقال أو خيرًا من ذلك؛ هو حُرّ لوجه الله، واشترى مرة غلامًا بأربعين ألفًا وأعتقه فقال الغلام: يا مولاي قد أعتقتني فهَبْ لي شيئًا أعيش به فأعطاه أربعين ألفًا، واشترى مرة خمسة عبيد فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون فقال: لمن صليتم هذه الصلاة فقالوا: لله فقال: أنتم أحرار لمن صليتم له فأعتقهم"(١).

فهذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ لو طُبقت في عصرنا هذا لن تجد فقيرًا أو معدمًا بين المسلمين، ولو طبقها عُشر المسلمين فقط؛ لأن العمل بها خارج عن نطاق الزكاة المفروضة إلى باب أوسع وهو باب الصّدقات وساحة أرحب وهي ساحة الإنفاق مما يحبه الإنسان ويستبقيه لخاصة نفسه.

---

(١) البداية والنهاية ٦/٩.

وهذا عليّ بن الحسين يتفاعل مع قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران١٣٤] "قال عبد الرزاق: سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ فسقط الأبريق من يدها على وجهه فشجه فرفع رأسه إليها فقالت الجارية: إن الله يقول والكاظمين الغيظ فقال: قد كظمت غيظي قالت: والعافين عن الناس فقال: عفا الله عنك، فقالت: والله يحب المحسنين، قال: أنت حرة لوجه الله تعالى"(١).

وهذا عمر بن عبد العزيز يتفاعل مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف١٩٦] "قيل له وهو على فراش الموت: هؤلاء بنوك -وكانوا اثنى عشر- ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟! فقال: إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، والله لا أعطيهم حقّ أحد، وهم بين رجلين: إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه، ولا أبالي في أيِّ واد هلك، ولا أدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت، ثم استدعى أولاده فودعهم وعزاهم بهذا وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم.

قالوا: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرسًا في سبيل الله وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك مع كثرة ما ترك لهم من الأموال يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز؛ لأن عمر وَكَلَ ولده إلى الله عز وجل وسليمان وغيره إنما يَكِلُوْنَ أولادهم إلى ما يَدَعُوْنَ لهم فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم"(٢).

بآية واحدة تفاعل معها عمر بن عبد العزيز في حقّ أبنائه فعصمهم بإذن الله وضمن لهم خيري الدنيا والآخرة، ألا فليعلم المسلمون كيف تكون تربية

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٨٣١٧.

(٢) البداية والنهاية ٢١٨/٩.

الذرية؟ وكيف يكون الحرص على الأبناء من وجهة نظر الإسلام؟.

والشعراء أيضًا لهم نصيب من فهم الكتاب والسنة والتعامل مع نصوصهما في واقع الحياة، فهذا الفرزدق الشاعر يتفاعل مع قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء٧٩] "يقال: إنَّ الوليدَ بعث إلى ملك الروم يطلب منه صناعًا في الرخام وغير ذلك؛ ليستعين بهم على عمارة المسجد الأموي بدمشق على ما يريد فبعث ملك الروم إليه صناعًا كثيرة جدًا؛ مائتي صانع وكتب إليه يقول: إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنت لوصمة عليه، فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك واجتمع الناس عنده لذلك فكان فيهم الفرزدق الشاعر فقال: أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله قال الوليد: وما هو ويحك؟! فقال: قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وسليمان هو ابن داود ففهمه الله ما لم يفهمه أبوه فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جوابًا إلى ملك الروم وقد قال الفرزدق في ذلك:

فرقت بين النصارى في كنائسهم ... والعابدين مع الأسحار والغنم
وهم جميعًا إذا صلوا وأوجههم ... شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه ... أهل الصليب مع القراء لم تنم
فهمت تحويلها عنهم كما فهما ... إذ يحكمان لهم في الحرث والغنم
داود والملك المهدي إذ جزآ ... ولادها واجتزاز الصوف بالجلم
فهمك الله تحويلا لبيعتهم ... عن مسجد فيه يتلى طيب الكلم
ما من أب حملته الأرض نعمله ... خير بنين ولا خير من الحكم"[1]

وهذا عبد الملك بن مروان الذي بلغت فتوح الدولة الإسلامية في عهده

(١) البداية والنهاية ١٥٣/٩.

أوجهَا، ينام على فراش الموت ويتفاعل مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ "قال أبو مسهر: قيل لعبد الملك في مرض موته كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام٩٤] وقال: يا ليتني كنت قصارًا أعيش من عمل يدي فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم"(١).

وإلى القضاة من هذه الأمة وكثير منهم تنكب عن الحق وحاد عنه أسوق ما فعله المهدي الخليفة العباسي من الحكم بالعدل متفاعلاً مع آيات القرآن الكريم "روى الخطيب أن رجلاً استعان المهتدي على خصمه فحكم بينهما بالعدل فأنشأ الرجل يقول:

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر

لا يقبل الرشوة في حكمه ولا يبالي غبن الخاسر

فقال له المهتدي: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك ولست أغتر بما قلت وأما أنا فإني ما جلست مجلسي هذا حتى قرأت قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء٤٧] قال فبكى الناس حوله فما رؤي أكثر باكيا من ذلك اليوم"(٢).

---

(١) انظر الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٨٦ ج٣.

(٢) انظر الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٢٥٦ ج٤.

وهذا ميمون بن مهران يتفاعل من آية من كتاب الله، "قال عمر بن ميمون: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة فمررنا بجدول فلم يستَطِعْ الشيخ أن يتخطاه فاضطجعت له فمرَّ على ظهري ثم قمت فأخذت بيده ثم دفعنا إلى منزل الحسن فطرقت الباب فخرجت إلينا جارية سداسيَّة فقالت: من هذا؟ فقلت: هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن فقالت: كاتب عمر بن عبد العزيز قلت لها: نعم، قالت: يا شقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء، قال: فبكى الشيخ فسمع الحسن بكاءه فخرج إليه فاعتنقا ثم دخلا فقال ميمون: يا أبا سعيد إني قد آنست من قلبي غلظة فاستكنّ لي منه فقرأ الحسن: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء٢٠٥-٢٠٧] فسقط الشيخ مغشيًّا عليه فرأيته يفحص برجليه كما تفحص الشاة إذا دُبحت فأقام طويلاً ثم جاءت الجارية فقالت: قد أتعبتم الشيخ قوموا تفرقوا فأخذت بيد أبي فخرجت فقلت: يا أبت أهذا هو الحسن قال: نعم، قلت: قد كنت أحسب في نفسي أنه أكبر من هذا قال: فوكز في صدري وكزة ثم قال: يا بني لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كُلُومًا"(١).

وهذا الحجاج بن يوسف الثقفي وقد كان ظالمًا عتيًّا إلا أنه كان يتأثر بآيات القرآن وينفعل لها ويقدم قول الله على كل قول؛ "قال الهيثم بن عدي: جاء رجل إلى الحجاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضُرب على اسمي في الديوان ومُنعت العطاء وقد هدمت داري فقال: الحجاج أما سمعت قول الشاعر:

حنانيك من تجنى عليك وقد ... تعدى الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنب قريبه ... ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير إني سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق

---

(١) البداية والنهاية ٣٢٧/٩.

من هذا. قال: وما قال؟!. قال الرجل، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف٧٨-٧٩] قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان وابن داره وأعطه عطاءه ومر مناديًا ينادي (صدق الله وكذب الشاعر)" [١].

والتفاعل الذي يؤدي إلى هلاك النفس مرفوض؛ وإن كان ثَّم في تراثنا من تأثر وتفاعل مع آيات القرآن فأودى بحياته فهذا وأمثاله مخالف لسنة النبي S، فهذا زُرارة بن أوفى بن حاجب العامري قاضي البصرة كان من كبار علماء أهل البصرة وصلحائها له روايات كثيرة قرأ مرة في صلاة الصبح سورة المدثر فلما بلغ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر٨] خَرَّ ميتًا""[٢].

وهذا الزاهد العابد يعقوب الكوفي مات أيضًا من سماع آية، فعن على بن الموفق قال: قال منصور بن عمار: خرجت ذات ليلة وأنا أظن أني قد أصبحت فإذا على ليل فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكي وهو يقول: وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولكن سوَّلت لى نفسي وغلبتني شقوتي وغرني سترك المرخى علىَّ؛ فالآن من عذابك من يستنقذني، وبحبل من اتصل إن أنت قطعت حبلك عنى، واسوأتاه على ما مضى من أيامي في معصية ربي يا ويلي كم أتوب وكم أعود قد حان لي أن أستحي من ربي عز وجل، قال منصور فقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون قال فسمعت صوتًا واضطرابًا شديدًا فذهبت لحاجتي فلما رجعت مررت بذلك الباب فإذا جنازة موضوعة فسألت عنه فإذا ذاك

---

(١) البداية والنهاية ٩/١٣٠.

(٢) العبر في خبر من غبر.

الفتى قد مات من هذه الآية "[١].

فالنبي S كان يسمع آيات الله تتلى عليه فيتأثر بها وينفعل لها فيدمع ويبكي ولا يزيد على هذا إلا الخشية والخوف والرجاء والإخبات إلى ربه جل وعلا، أما ما جاء به تراثنا من أن بعض الشواذ ماتوا من سماع آية فهذا مخالف لمنهاج الإسلام.

وهذا سعد بن أبي وقاص "فاتح المدائن؛ بلاد كسرى الفرس، لما هزمهم سكن القصر واتخذ الإيوان مصلى وحين دخله تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان٢٥-٢٩]" [٢].

وأنا أقول لحكام المسلمين متى ندخل باريس وفيينّا وواشنطن ولندن قائلين: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

هذه هي الأجيال التي فتحت الدنيا بأسرها، كان الكتاب والسنة يسير في دمها، مخلوطًا بلحمها وشحمها، أما اليوم فلا تجد حاكمًا ولا محكومًا -إلا من رحم الله- يفقه كتاب الله أو يتفاعل معه في حياته العملية، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يبعث لنا من مثلهم نفرًا يشيدون لنا مجدًا أضعناه، وأن ييسر قيام دولة الإسلام في الأرض.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٨٥.

(٢) البداية والنهاية ٧/٦٧.

طلبة علم الزمان في خبر كان

إن كثيرًا من إخواننا الذين تعلَّمُوا عند المشايخ يرفضون رفضًا باتًّا إخوانهم الذين تعلَّمُوا مِنْ كتب العلماء، ويرون أنهم لن يصلوا إلى الحق إلا عن طريق الشيخ، والذين اعتمدوا على أنفسهم في تعلُّم العلوم الشرعيَّة يحقرون مَنْ تعلم عند المشايخ، ويرون أنهم ضعاف علميًّا لا يقرأون ولا يبحثون عن درر الشريعة في بطون الكتب، ويعتمدون على الشيخ فحسب، قائلين ومكتفين: نحن تعلمنا عند المشايخ!.

والحقُّ أن كل واحد من هاتين الطائفتين على جانب من الصواب، وقد أخطأه الصواب من جانب آخر.

فمن تعلم عند المشايخ ورزقه الله إيّاهم في زمان قَلَّ فيه العلماء الثقات وبخاصة الذين يهتمون بالتربية قبل التعليم، ومع هذا لم يطالع مدونات السُّنن ويسرد كتب الأولين والآخرين سردًا -قدر الاستطاعة- واعتمد على قوله: أنا تلميذ الشيخ؛ فهذا لا شك مفتون في بجهله واتكاله في غير موضعه.

والذي لم يتوفر له المشايخ ولم يحظ بلقائهم وقال: سأجلس في بيتي لأتعلَّمَ حتى أجد شيخًا، فهذا لا شك تنكب الطريق الصحيح والصراط المستقيم، فليتعلَّمْ ويجاهد ويتصل بالعلماء عبر الهاتف، وليسمع تسجيلاتهم، وليأتِ بالشروح وشروح الشروح وهي والحمد لله متوفرة في أبهى حُلل الطبعات.

فالقعود عن تعلم العلم في هذا العصر تعطيل لهمم الشباب بحجة قول الطائفة الأولى: (من كان علمه من كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه).

أيها الشباب: هذه الكلمة ليس لها معنا الآن؛ لأن المقصود منها في زمانها أن الكتابة العربية كانت بدون نقط أو تشكيل، فكان القارئ الذي ينظر في الكتب دون الدراسة على أيدي العلماء يحار في نطق كلمة مثل: (جمرة) وهي بدون نقط فهل تكون (حمزة) أم (خمرة) وكلمة: (عند) مثلاً وهي بدون نقط هل هي (عيد) أم (عبد) وهكذا.

فهذه الكلمة ماتت بفعل استحداث وسائل جديدة للخط العربي.

فالشيخ أيها الكرام: يعلم الأصول العامة من الشريعة، أما الجزئيات فهي متروكة لطالب العلم كلٌ بحسب مقدرته على سبر أغوار بطون كتب الشريعة والتراث، وهذا الذي يميِّزُ طالبًا عن آخر.

وبمعنى آخر الشيخ يُدّرس خمسة بالمئة من العلوم وباقي النسبة وهى خمس وتسعون بالمئة تكون على عاتق طالب العلم، فالشيخ يفتح الأبواب وعلى طالب العلم أن يلج ويرى ويفهم ويبدع في الخطابة ودروس العلم والتأليف وهداية الخلق أجمعين. ومن لم يستطع أن يسلك فَلْيَسْأل الشيخ أوَّلاً بأول.

والعجيب أنَّ الطائفة الأولى قد يدرسون علمًا واحدًا عند شيخهم، وليكن علم الحديث فتجدهم يتكلَّمون في الفقه وفي أصول الفقه وفي العقيدة وفي اللغة وفي كل مجال بحجة أنهم تعلموا عند الشيخ، وكأنه مشجب يضعون عليه جهلهم وتجرُّأهم على كتاب الله وسنة رسوله، بل ينكرون على غيرهم ممن رزقهم الله العلم والفهم في كتابه أن يتكلم في عُشر معشار ما تكلموا فيه، ويقفون في وجهه وإن كان ما يقوله هو الحق، وحجتهم أنه لم يتعلم عند شيخ .. ألا لعنة الله على الظالمين.

فالمدار عندهم هو الشيخ وليس الحق، فرحم الله عليَّ بنَ أبي طالب حين قال: يعرف الرجال بالحقِّ، ولا يُعرف الحقُّ بالرجال.

وقريب منهم في هذا الفهم أخواننا الأزهريون الذين اكتفوا بحصولهم على الشهادة العليا وقالوا نحن خريجو الأزهر، حتى أوقعهم ذلك في الثقافة الضحلة، والأسلوب السيئ في الخطابة والكتابة، والحقيقة أن العلم بحر لا ساحل له.

أيها الكرام الأخيار .. قد يظن ظانٌّ أنني أدافع عن طائفة؛ لأنني من الطائفة الأخرى ألا فَلْيَعْلم أنني أدافع عن الحق وأدفع بإخواني إلى الطريق الصحيح، فقد تعلمت على أيدى علماء ثقات حصلت فيها ما استقام به قلبي وعقلي على منهاج أهل السنة والجماعة، وانطلقت خطيبًا ومتكلِّمًا ومؤلِّفا - رزقنا الله الإخلاص ونفع الأمة- فأنا عن هذا المنهاج أدافع وأقبل الحق ممن جاء به فالحكمة ضالَّة المسلم أينما وجدها فهو أوْلى بها.

هذه الطائفة التي أقف الآن في سبيل تهذيبها وتقليم أظافرها التي أنشبوها في ظهور شباب المسلمين الطموح لتعلم العلم وخدمة المسلمين بحق، لها من الأفعال والأقوال ما أقصه عليكم الآن:

مشكلتهم الأولى والأخيرة والصغرى والكبرى هي الحديث الصحيح والحديث الضعيف، وكأنها هي الأصل الأصيل، والرُّكن الرَّكين من هذا الدين، وقد أصابوا الغادي والرائح بصدع في رأسه من كثرة الحديث حول هذا الموضوع.

ونحن لا نقلل من هذا العمل، فهو بحقٍّ موضوعٌ جديرٌ بالاحترام، ولكن نرفضه إن كان بهذا الشكل الذي ينشره هؤلاء، فهناك فوائد الحديث وفقه الحديث، وهل العمل عليه عند أهل العلم أما لا، فقد يكون العمل على غيره رغم كونه ضعيفًا، وهل هو ناسخ أم منسوخ، وهل هو عامٌّ أم خاصٌّ، وهل هو مطلق أم مقيد، أمور كثيرة قد لا يفهمونها ولا يجيدون استنباطها؛ ولكنهم يكتفون بقولهم: نحن تعلمنا عند الشيخ!.

وأمر العلم برُمَّتِهِ لا يعنيهم من قريب أو بعيد؛ فقد قلت لأحدهم يومًا حديث: (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تَخُن من خانك) فقال: هذا حديث ضعيف، فقلت: إن الشيخ الألباني حفظه الله -وقد كان حيًّا- قال: إنه حديث صحيح، فقال: إنه عندي ضعيف. فقلت حسبي الله ونعم الوكيل، وهل لك عند أيها العنيد المكابر.

فالعلم والأصول العلمية هي آخر ما يفكر فيه هؤلاء؛ إنما يريدون أن يكون لهم شأن، وهذا من ضعف النفوس وفقرها، ومن الخبث الذي ابتليت به أمة الإسلام بقلة الإخلاص وحب الظهور والرياء. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن جهلهم بالأصول، أنه كانت لي مناقشة مع أحدهم حول قضية فقهية وأنا أثبتها كما قال العلماء وهو ينفي، فقلت له: إن العلماء قالوا -وكما هو معروف من الأصول-: إن المثبت مقدَّمٌ على النافي، فقال: ما معنى هذا الكلام ومن أين جئت به فأنا لا أفهمه! يقول هذا باستنكار عجيب! أي: أن ما لا يعرفه أو يفهمه لا يكون علمًا. فقلت: سبحان الله أو كل شيء لا تعرفه لا يكون علمًا إن جهلك هذا جهل مركب.

ومن جهلهم بالفقه والتطبيقات العملية له أن أحدهم رآني وأن أضع بعض العطر الذي يحتوي على (السبرتو) فقال على الفور دون تردد هذا حرام لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة٩٠] وهي عنصر في الخمر، فقلت له: وهل الأنصاب أي:

الأصنام رجس إذا مسستها فقد تنجستُ؟!، وهل الأزلام أو ما يشابهها من النرد رجس إذا مسستها تنجست؟! أبعد الله من أبعد!.

ومن جهلهم بقواعد اللغة العربية، أنه قد حدثني أحد الإخوة المتخصِّصين في اللغة أنَّ أحدهم كان يجادله في (لا) من حيث كونها نافية أو ناهية في حديث المصطفى × : (لا تناجشوا) فكان صاحبنا لا يتورع عن التسليم لصاحب اللغة الذي يقول: إنها لا الناهية، وأصرَّ صاحبنا أنها لا النافية، وهذه من صغائر علم اللغة ويجادل صاحبنا أشد المجادلة فكيف بالكبيرة؟!

وكتب أحدهم بحثًا وتعرض فيه لبعض التعريفات اللغوية فكان يكتب مصدره في لسان العرب بالجزء والصفحة فقلت له إن معاجم اللغة لا تعترف بهذا إنما التخريج فيها يكون هكذا (اللسان مادة كذا) أي بالمادة وليس بالجزء والصفحة فتعجب أشد العجب!.

ومن جهلهم بقواعد الإملاء والتهجي؛ أنه كان هناك كتاب في المكتبة للشيخ الفاضل أبي بكر الجزائري بعنوان (الجُمل في زكاة العُمل) بضم الجيم في الكلمة الأولى والعين في الكلمة الأخيرة من اسم الكتاب، فذكرته لأحد هؤلاء كمرجع لبعض الكلمات التي أذكرها، وأشرت إلى الكتاب في المكتبة فقال: أعرف هذا الكتاب المسمى (الجَمل في زكاة العَمل) بفتح الجيم في الكلمة الأولى والعين في الكلمة الأخيرة من اسم الكتاب، فانظر إلى أي مدى المعاناة التي نعانيها من هؤلاء الذين اعتمدوا على اسم الشيخ ولم يقرأوا ويتعلموا.

ومن حقدهم وحسدهم للمسلمين أن جمعني بأحدهم موقف فقلت فيه: إن صاحب كتاب فقه السنة ذكر هذه الجملة في كتاب الصيام وعلى من يجب فقال رحمه الله (إنه يجب على المسلم العاقل البالغ الصحيح المقيم ويجب أن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس) وأن الشيخ ابن العثيمين رحمه الله قال (يجب الصيام على المسلم البالغ العاقل المقيم الخالي من الموانع) فكانت هذه الجملة أحسن وأشمل من سابقتها، وقلت أنا (يجب الصيام على المسلم البالغ العاقل الخالى من العوارض والموانع) وهذه أشمل من سبقتيها، وعنيت بالعوارض كل ما يحول بين المسلم والصيام بصفة مؤقتة ويمكن أن يزول فيما بعد كالسفر والمرض العارض الذي يرجى برؤه، وعنيت بالموانع كل ما يحول بين المسلم والصيام بصفة دائمة ولا يزول في المستقبل كالمرض المزمن والشيخوخة.

فإذا بصاحبنا ينكر علىَّ أن أجتهد في جزئية يسيرة في باب من أبواب الفقه، فعلمت أنه لا يفرح بأخيه المسلم وبعيد كل البعد عن أخلاق الإسلام وليس هذا خلق شخص أو اثنين بل منهم الكثير ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأذكر مرة أنني ذهبت إلى أحدهم وكان صاحب مكتبة لبيع الكتب فقلت له هل عندك كتاب (الحيوان للجاحظ) فقال دون تردد لا نأتي بهذه الكتب إلى مكتبتنا، فقلت له: لماذا؟. فقال إن الجاحظ معتزلي ومخالف لمنهج أهل السنة والجماعة. فقلت سبحان الله، وهل كل مذهب مخالف لأهل السنة والجماعة لا نقرؤه! أين التعدد الفكري أين مقارعة الحجة بالحجة!، هل أنتم من تريدون أن تحكموا العالم ولا تتسع صدوركم لمخالفيكم!، حُق للعلمانيين أن يخافوا من إقامة الشريعة في الأرض ما دام من يحكم بها أمثالكم(١).

وأذكر أن كنت واقفًا مع أحدهم ومر رجلٌ من أصحاب المال فأشار إليه وقال هذا الرجل مثل قارون في ماله أعطاه الله الكثير ثم هو يبخل به، فقلت: سبحان الله يعطي الحلق لمن ليس له أذن! فقال: هذا القول لا يجوز شرعًا لأن الشيخ الفلاني قال إنه حرام. فقلت: سبحان الله أقول لك أن أتعجب من حكمة الله ولا أعترض عليه سبحانه، كونه يعطي رجلاً مالا ولا ينفقه في سبيله، ويعطي آخر الملك ولا يسخره في خدمة شريعته، ويعطي آخر العلم ولا يرعى حقه..إلى آخر هذه النعم التي ينعم الله بها على بعض عباده ولا يضعونها في موضعها، ولكن صاحبنا أبى إلا كبرًا وعنادًا، فهذه هي العقول التي لا تعي الحق ولا تميز الباطل.

أما قضية لبس (الساعة) في اليد اليمنى، وغطاء الرأس (الشال) فقد أخذت منا وقتًا طويلاً في الجدال العقيم حتى شرحنا لهم أنه ليس هناك لباس معين في الإسلام إنما هناك مواصفات له كأن يكون ساترًا للبدن غير كاشف للعورة وغير ذلك، فالإسلام دين عالمي يحتوي زي من يسكنون أعلي سيبريا ويحتوي زي من يسكنون على خط الاستواء، أما هذا (الشال) فليس زيًا يطالب به الإسلام وغاية ما فيه أنه تقليد لأهل الجزيرة فحسب،

---

(١) مع العلم أن الجاحظ نفسه وكتبه لا تتعرض من قريب أو بعيد إلى مسألة الاعتزال بالمعنى العلمي والمجادلة والمحاجة، إنما هو أديب في المقام الأول، وكتابه الحيوان، وكذا البيان والتبيين من عمدة كتب الأدب عند علماء المسلمين.

ومع ذلك أبوا إلا لبس (الشال) حتى الآن كأنهم يتقربون به إلى الله.

ومن العجيب في سلوك هذه الطائفة أنك تجد الواحد منهم يريد أن ينام في المسجد أو في مكتبة المسجد، ويبحث عمن ينفق عليه، فقد سألني أكثر من واحد منهم: أليس من الحكمة الاجتماعية أن يكفل أحد الأغنياء بعض طلبة العلم-يُلمح إلى نفسه-؟! وكان يريد منّي ردًّا يدعمه معنويًّا كما هو معتادٌ عليه من إخوانه المرتزقة، فقلت له: إن وجدنا فيه همة عالية ورجاحة عقل كابن تيمية مثلاً أنفقنا جميعًا عليه وأنا أوَّل المنفقين، ولكن الذي يظهر أنهم كسالى يحبون الأكل والنوم!.

ولا يعبأون أن يتخذوا من المسلمين أعداءً لهم إن كانوا على غير منهجهم، ويحاربون كل من يعمل في سبيل الله وتبليغ دعوة الله ما دام من غير جماعتهم وليس من طلبة العلم عند شيخهم! واصفين إيّاهم أنهم على غير منهج أهل السنة والجماعة، وهم -واللهِ- يُسيئون إلى أهل السنة والجماعة أيما إساءة؛ حتى قالت عنهم الجماعات الأخرى: إنهم عملاء للحكومات وأجهزة الأمن.

والناظر في إنتاجهم يجد أنهم لم يثروا الحياة الثقافية ولم يغيروا من سلوك العامة أو يشحذوا هممهم، إنما لا يجيدون إلا (تحقيق) الكتب! وأنا لا أقلل من هذا العمل ولكن بضوابطه، فليس التحقيق من الناحية الحديثية فحسب، والمطلع على مشايخ التحقيق في مصر كالشيخ محي الدين عبد الحميد، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ عبد السلام هارون وغيرهم يجد أنه أمام موسوعات تيسر له تحقيق الكتب، أما سرقة تحقيقات الأحاديث من كتب الشيخ الألباني ووضعها في الكتب وادّعاء أنَّ هذا تحقيق! فهذا غش وخداع للأمة، ناهيك عن تحقيق المحقق مرات ومرات.

وإذا جاء أحدهم بمؤلف جديد كان عبارة عن تلفيقات ومقتبسات من كتب الفقه التي تملأ المكتبة الإسلامية ويقول: إنّه ألّفه!. ويا ليتهم يحسنون جمعًا أو ترتيبًا إنما جمعًا خاليًا من التنظيم والتبويب الجيد فضلاً عن أن تجد فيه رائحة الإبداع.

فهذا أحدهم له كتاب بعنوان: (جامع أخطاء المصلين) في جزأين، وقد عجبت من هذا. هل الأحرى أن نجمع أخطاء المصلين في جزأين أم رسالة صغيرة تشرح صفة صلاة النبي كما فعل الشيخ ابن العثيمين رحمه الله؟!

ولكنها العقول المريضة، والنفوس التي هي مثل الذباب لا تقع إلا على الجرح.

فيا ليتهم تركوا الكتابة لأربابها:

حمار في الكتابة يدعيها ... كدعوى آل حرب من زياد

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو غرقت ثوبك في المداد

أيها الكرام الأخيار: غاية ما أريد أن أقوله هو: إنه لا يعجبني من يقول لابُد من تعلم العلم عند العلماء، فهي كلمة حقّ أريد بها باطل، كلمة حقّ؛ لأنه من الأهمية بمكان تلقي العلم الشرعي من (أحد) مصادره الصحيحة السهلة وهم العلماء، وكلمة باطل؛ لأنها تريد أن تُقعد الشباب -الذي لم يتوفر له العالم- عن البحث عن العلم في كتب العلماء الميسرة.

ومن ناحية أخرى فهذه الكلمة قد لا تنسحب على كثير من الناس فهناك عباقرة في تاريخ الأمة لم يكن لهم علماء أو مشايخ، ومع كثرة الاطلاع والتبحُّر في العلم كانوا بفضل الله علماء.

ومنهم من درس أيَّامًا معلومات عند علماء ومشايخ وقد برز اسمه عاليًا في سماء تاريخ الأمة المجيد. ومنهم من لا يُعرف شيخه لعبقريته التي فاقت بمراحل الشيخ الضعيف الذي تعلم على يديه.

وهؤلاء المستشرقون مثال واضح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أبدعوا أيما إبداع في إنتاج كتب علمية يعجز المسلمون -بشهادة العلماء- عن إنجاز أي منها، فليكن هو على ضرب هؤلاء المستشرقين في الجانب المشرق من إبداعاتهم إن لم يتوفر له الشيخ.

بل إن عَلَمًا من علماء الحديث -غير الرسميين- في هذا الزمان في مصر يعد من أذكى الأذكياء؛ لأنه تعلم بنفسه من مصادر كثيرة وبمقابلة الكتب والعكوف عليها والاتصال بالعلماء إلى آخر هذه الأشياء التي أثقلت مواهبه في علم الحديث دون التتلمذ على أيدي أحد من علماء الحديث بالمعنى الحقيقي للتتلمذ، وحين أراد أن ينطلق دون عائق ذهب إلى الشيخ الألباني مدّة لا تزيد عن ستة أشهر ليُعتمد من قبله، فهذا غاية في الذكاء،

وسعة في العقل والفهم، وما العيب في ذلك ما دامت أصول الإسلام في قلبه، وما دام يعرض للناس القرآن والسنة في أبهى حلة[٢].

هذا وإن قال قائل: إنهم طلبة علم صغار وأقوالهم وأفعالهم لا يُعتدّ بها، قلنا: إن كبيرهم الذي علمهم هذا المنهاج، كتبه شاهدة على ذلك، يقول في أحدها: ما درجة الشيخ الألباني في تصحيح الأحاديث وتضعيفها؟ ويجيب - ويا ليته ما أجاب- قائلاً: إنه يصحح الحديث في كثير من الأحيان بناءً على صحة الإسناد فقط، ولا ينظر إلى أوجه علله، وأحيانًا يصحح بمجموع الطرق وكثرتها مع شدة ضعفها.

ويقول في آخر واصفًا فتوى ابن العثيمين بالاضطراب: وهناك فتوى مضطربة عارية عن الدليل.

ويظن بعد ذلك أنه سيفلت بعملته تلك من أيدي طلبة العلم، لا والله ولا كرامة!.

ومن أعجب ما سمعت منهم أن قال أحدهم: أريد أن أقوم بعمل كتاب بعنوان (نظرات على السلسلة الصحيحة) لأتتبع الشيخ في أخطائه، وقد استأذن شيخه في ذلك فأذن له. فانظر إلى هذا السخف وليس ببعيد عنهم.

ألا فَلْيَعْلَمُوا أنّ السلسلة الصحيحة التي كسرت كل السلاسل لن يوجد لها منافس إلا بعد مئة عام على الأقل عندما يأتي مجدّد لهذا الدين أو لهذا العلم بالأحرى.

فالصحوة الحديثية التي بدأت في السبعينيات من القرن المنصرم آتت أكلها على يد الشيخ الألباني رحمه الله وقد كفانا المؤنة فليبحث كل واحد من القوم على علم آخر يشغل به نفسه كما فعل بعضهم واتجه للتفسير أو الفقه.

وليعلم هؤلاء أنهم مع إرعادهم وإزبادهم غير معتمدين من قبل الهيئة الرسمية بالبلاد وهي الأزهر الشريف فليخفضوا من أصواتهم وليهونوا على أنفسهم.

---

(٢) أشهد الله على حبه، والتأثر به فقد كانت محاضراته نبراسًا لي على طريق الهدي وبخاصة المحاضرة التي عنوانها (العلم لن يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك) عام ١٩٩٦م.

أسـأل الله العظـيم رب العـرش العظـيم أن يشـفي أمـراض المسـلمين ووساوس المخبولين، إنه على كل شيء قدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نِساءُ الإسلامِ قرّةُ عينِ الزمانِ (٢/١)

عجيبٌ أمر هذه الأمَّة؛ كما أخرجت رجالاً لا يُعرف لهم مثيلٌ في تاريخ الأمم، أخرجت أيضًا النّساء الفُضْلَيَات القدوات التي لا تطاولهن نساء أمة من الأمم، ومن عجب بعد ذلك أن ترى الأجواء المحيطة بالمسلمين يجول في سمائها أسماء لبعض النساء من تاريخ الحضارة الغربية كي نتخذها قدوة، كأنَّ تاريخ وحضارة وثقافة الإسلام نضبت عن أن تحدثنا عن نِسَاءٍ هُنَّ خيرُ نسَاءِ الأرض جَمْعَاء، وما زال عندنا في الوقت الحاضر الكثير والكثير؛ ولكنَّ الحركة الإسلامية متاورية عن دنيا الناس لأسباب ليس هذا موضع بسطها، ولكن الذي يهمُّنا في هذا المقام هو بسط بعض من حياة سلفنا الصالح من العابدات والمجاهدات والعالمات؛ ليكونوا لأمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا وبناتنا قدوة على مرِّ الزمان.

لدينا في تاريخ الإسلام ذكريات حافلة بنجوم مشرقة من أولئك الخيَّرات المستبسلات اللواتي وقفن حياتهن لإعلاء كلمة الإسلام، ورفع رايته، فتاريخ أمتنا الإسلامية مملوءٌ بالعشرات، بل المئات من الوقائع الكبرى، ومن الأسماء المجيدة الخالدة التي تُحيي في قلوبنا العزّة والفخار.

ولقد كان جهاد المرأة المسلمة في خدمة الإسلام واضحًا قويًّا منذ فجر الدعوة، والتاريخ يحفظ لنا اسم تلك الصحابيَّة الوفيَّة أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنيّة، التي قاتلت يوم أُحُد وخرجت أول النهار تنظر ما يصنع الناس ومعها سقاءٌ فيه ماءٌ فانتهت إلى رسول الله × وهو في أصحابه والدولة للمسلمين؛ فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله × فقامت تباشر القتال وتذُبُّ عنه بالسيف وترمي عنه بالقوس حتى خلصت الجراح إليها.

فكان على عاتقها جرحٌ أجوفُ له غور كان قد أصابها ابن قميئة لما ولَّى الناس عن رسول الله × وقد أقبل يقول: دلوني على محمد؛ لا نجوت إن نجا، فاعترضت له هي ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبتُوا مع رسول الله × فضربها هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنَّ عدو الله

كان عليه درعان[٣].

وهذه أسماء بنت يزيد تقتل تسعة من الرُّوم، فقد روى محمد بن مهاجر، وأخوه عمرو، عن أبيهما، عن أسماء بنت يزيد قالت: قتلت يوم اليرموك تسعة[٤].

وكذا أم سليم الرُّميصَاء تتجهز بخنجرها للأعداء يوم حُنَيْنٍ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ × يَوْمَ حُنَيْنٍ: «**مَنْ قَتَلَ كَافِرًا فَلَهُ سَلَبُهُ**» فَقَتَلَ أَبُو طَلْحَةَ يَوْمَئِذٍ عِشْرِينَ رَجُلاً وَأَخَذَ أَسْلاَبَهُمْ وَلَقِيَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ وَمَعَهَا خِنْجَرٌ، فَقَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا مَعَكِ؟ قَالَتْ: أَرَدْتُ وَاللهِّ إِنْ دَنَا مِنِّي بَعْضُهُمْ أَبْعَجُ بِهِ بَطْنَهُ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَبُو طَلْحَةَ رَسُولَ اللهِّ ×[٥]

وفي غزوة الخندق تجمع أحزاب المشركين وعسكرت قبائلهم قرب المدينة، وشغل النبي × والمسلمون بأمر الخندق ثم خان بنو قريظة في معاهدتهم، فأحدثوا بذلك ثغرة داخلية في قوة الإسلام إذ ذاك، وهنالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا، وكان بنو قريظة يؤذون المسلمين من الخلف ويساعدون الأحزاب.

وكان النساء بالمدينة بمعْزِلٍ عن الجيش، ولم يكن لديهنَّ من الجنود من يمنعهُنَّ غائلة اليهود من بني قريظة، وفي تلك الأثناء أقبل يهوديٌّ فاطّلع على مكانهن، ورأته صفيَّةُ بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله، فطلبت إلى حسَّان أن يقتل ذلك اليهودي خشية أن يُطلع بني قريظة على عورات المسلمين، ولكنَّ حسَّان اعتذر وتخلَّف عن الإقدام، فتقدمت صفيَّة رضي الله عنها وحملت عمودًا من بعض الخيام وضربت به رأس اليهودي فسقط على الثَّرى قتيلاً. [٦]

---

(٣) سير النبلاء ٢/٢٧٨.

(٤) البداية والنهاية ١١/٣٥٥.

(٥) رواه مسلم ١٨٠٩، أبو داود ٢٧١٨.

(٦) البداية والنهاية ٧/١٠٧، سير النبلاء ٢/٢٧٠.

وكانت أعمالهن غالبًا مداواة الجرحى، وإطعام الجند وسقيهم، وتشجيعهم وبث الحمية في قلوبهم على القتال، فعَنْ الرُّبَيِّع بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ × «نَسْقِي وَنُدَاوِي الْجَرْحَى وَنَرُدُّ الْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ». (٧)

وعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الأَنْصَارِيَّةِ قَالَتْ: «غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ × سَبْعَ غَزَوَاتٍ أَخْلُفُهُمْ فِي رِحَالِهِمْ فَأَصْنَعُ لَهُمْ الطَّعَامَ وَأُدَاوِي الْجَرْحَى وَأَقُومُ عَلَى الْمَرْضَى». (٨)

فهذه المواقف يتجلَّى فيها ما كان للمرأة المسلمة من صدق اليقين، وكمال الغَيْرَةِ على الدين، وحرصها أن لا تحرم من شرف الجهاد مع المسلمين؛ لتنال فخر المجاهدين وأجر الصابرين

وفي مجال الصّبر على المصائب نجدُ السميراء بنت قيس -إحدى نساء بني دينار- وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله × بأُحُدٍ؛ فلما نُعوا لها قالت: ما فعل رسول الله × قالوا: خيرًا يا أمَّ النعمان هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتّى أنظر إليه، قال: فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل(٩).

وهذه أسماء بنت أبي بكر يدخل عليها الحجاج بن يوسف بعد ما قتل ابنها عبد الله بن الزبير -وقد صلبه على جذع فوق الثنيّة- فقال: أرأيتِ كيف نصر الله الحق وأظهره فقالت: ربما أديل الباطل على الحق وأهله وإنك بين فرثها والجنة فقال: إن ابنك ألحد فى هذا البيت، وقد قال الله تعالى: "ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ندقه من عذاب أليم" وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم، قالت: كذبت كان أول مولود فى الإسلام بالمدينة، وسُرَّ به رسول الله × وحنَّكه بيده وكبَّر المسلمون يومئذ حتى ارتجَّت المدينة فرحًا به، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذ بمولده خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك برًّا بالوالدين صوَّامًا قوَّامًا بكتاب الله معظِّما لحرم

---

(٧) رواه البخاري ٢٨٨٢.

(٨) رواه مسلم ١٨١٢، ابن ماجة ٢٨٥٦.

(٩) البداية والنهاية ٤٨/٤

الله؛ يبغض من يعصي الله عز وجل، أشهد على رسول الله × لسمعته يقول: سيخرج من ثقيف كذّابان الآخر منهما شرٌّ من الأول، وهو مبير فانكسر الحجاج وانصرف. (١٠)

وقيل لابن عمر: إن أسماء في ناحية المسجد فمال إليها وقال: إن هذا الجسد ليس بشيء؛ وإنما الأرواح عند الله فاتقى الله واصبري، فقالت: وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل. (١١)

وهذه معاذة بنت عبد الله، السّيدة العالمة، أم الصَّهباء العدويّة البصريّة العابدة، زوجة السيّد القدوة صلة بن أشيم، لما استشهد زوجها صلة وابنها في بعض الحروب، اجتمع النساء عندها، فقالت: مرحبًا بكُنَّ، إن كُنتنَّ جئتن للهناء، وإن كنتنَّ جئتن لغير ذلك فارجعن. (١٢)

فالصَّبْرَ الصَّبْرَ يا نسَاءَ فلسطين، وليكن في هؤلاء السَّلف الصَّالح قدوةٌ لكُنَّ فموتاكم شهداء في الجنَّة، قال تعالى عنهم: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران١٧٠-١٧١]

وفي مجال التقوى والورع نجد ميمونة بنت شاقولة الواعظة التي هي للقرآن حافظة، ذكرت يومًا في وعظها أن ثوبها الذي عليها وأشارت إليه له في صحبتها تلبسه منذ سبع وأربعين سنة وما تغيَّر، وأنه كان من غزل أمها. قالت: والثوب إذا لم يُعْص الله فيه لا يتخرق سريعًا.

وقال ابنها عبد الصمد كان في دارنا حائطٌ يريد أن ينقضَّ فقلت لأمي: ألا ندعو البنَّاء ليصلح هذا الجدار فأخذتْ رقعة فكتبتْ فيها شيئًا ثم أمرتني أن أضعها في موضع من الجدار فوضعتها؛ فمكث على ذلك عشرين سنة،

---

(١٠) البداية والنهاية ٨/٣٣٥.

(١١) سير النبلاء ٢/٢٩٥.

(١٢) سير النبلاء ٤/٥٠٩.

فلما توفيت أردت أن أستعلم ما كتبت في الرقعة، فحين أخذتها من الجدار سقط، وإذا في الرقعة: إنَّ الله يُمْسِك السموات والأرض أن تزولا، اللهم مُمْسِك السموات والأرض أمسكه. (١٣)

وما كان هذا ليكون إلا بقوة الإيمان واليقين والتوكُّل على الله فى الأمر كلّه، فهل فى نسائنا العابدات القانتات التى لو أقسمت على الله لأبرها؟!.

وأيضًا هذه رابعة العدوية، قالت عنها عبدة بنت أبي شوال: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر، هجعت هجعة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول: يا نفس كم تنامين، وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا ليوم النشور(١٤)

وفي مجال الصدق مع الله نجد أم سليم مهرها الإسلام، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ فَقَالَتْ وَاللَّهِ مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يُرَدُّ وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ كَافِرٌ وَأَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ فَإِنْ تُسْلِمْ فَذَاكَ مَهْرِي وَمَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ فَأَسْلَمَ فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرَهَا قَالَ ثَابِتٌ فَمَا سَمِعْتُ بِامْرَأَةٍ قَطُّ كَانَتْ أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ الْإِسْلَامَ فَدَخَلَ بِهَا فَوَلَدَتْ لَهُ. (١٥)

وفي مجال الصدقة تبرعوا بكل شيء حتي الحُلِي؛ فعن ابْنِ عَبَّاسٍ خَطَبَ رسول الله × العيد وأتى النساء فَذَكَّرَهُنَّ وَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ وَبِلَالٌ قَائِلٌ بِثَوْبِهِ فَجَعَلَتْ الْمَرْأَةُ تُلْقِي الْخَاتَمَ وَالْخُرْصَ وَالشَّيْءَ. (١٦)

وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة٢٤٥] قال أبو الدَّحداح: يا رسول الله أو إن الله تعالى يريد منا القَرْضَ؟ قال: " نعم يا أبا الدَّحداح قال: أرني يدك؛ قال فناوله؛ قال: فإني أقرضتُ الله حائطًا فيه ستمائة نخلةٍ، ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدَّحداح فيه وعياله؛ فناداها: يا أم الدَّحداح؛ قالت: لبيك؛ قال: اخرجي، قد

---

(١٣) البداية والنهاية ٣٥٥/١١، سير النبلاء ٢٧٨/٢.

(١٤) سير النبلاء ٢٤٢/٨.

(١٥) رواه النسائي ٣٣٤١، صحيح سنن النسائي ١١٤/٦.

(١٦) رواه البخاري ٩٨، مسلم ٨٨٤، أبو داود ١١٤٢، الترمذي ٥٣٧، النسائي ١٥٦٩، ابن ماجة ١٢٧٣.

أقرضتُ ربي عز وجل الحائط. قالت أمُّ الدَّحداح: ربح بيعك بارك الله لك فيما اشتريت، ثم أقبلت على صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم؛ حتى أفضت إلى الحائط الآخر.[١٧]

فأين أنت أختي المسلمة من هذا الخلق، وأين أنت من الحرص على دفع الزوج دفعًا للتصدق في سبيل الله وعدم لومه أو توبيخه أو ذمّه من أجل دراهم معدودة، فكثير من الأزواج لا يستطيع البوح لزوجته بما تصدق به في سبيل الله؛ فاللَّوْمُ جاهز من الزوجة، والمبرّرات جاهزة من أن الأولاد أحقُّ بهذا من أيّ أحد، وأمثال الجاهلية جاهزة مثل: (ما احتاجه البيت حرم على المسجد)، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي مجال العلم نجد عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصارية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، روى القاسم بن محمد أنه قال: أتيتها -لطلب العلم- فوجدتها بحرًا لا ينزف[١٨] ، وكثير من الفقيهات على مرّ التاريخ ذُكرن في كتب أهل العلم، وتراجمهن معلومة أمثال: فاطمة أمّ البنين النيسابوريّة، وفاطمة بنت القاسم، وبيبي، وشهدة الكاتبة، وكريمة، وتجني بنت عبد الوهاب، وفاطمة أم البنين، وخديجة بنت الحسن، وغيرهن الكثير.

فأسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يرزق الأمة نساءً كهؤلاء يستأنفنا تاريخ الأمة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١٧) تفسير القرطبي على الآية، وأصلة في صحيح مسلم ومسند أحمد.

(١٨) سير النبلاء ٤/٥٠٨.

نِساءُ الإسلامِ قُرَّةُ عَينِ الزمانِ (٢/٢)

تكلمنا في مقالة سابقة عن نجوم الحضارة الإسلامية من نساء الإسلام اللائي ضربن أروع الأمثلة في مجال الجهاد في سبيل الله، وفي مجال الصّبر على المصائب، وفي مجال التقوى والورع، وفي مجال الصدق مع الله، وفي مجال العلم، وفي هذه المقالة نتكلم عن امتثالهن لأمره ×.

نتكلم عن سلفنا الصالح من النساء اللائي قدمن النموذج الأمثل في طاعته × حيًّا وميتًا، فلم يكن السمع والطاعة قاصرًا على الصحابة فحسب بل ضرب النساء الصحابيات بسهم وافر في هذا الخير العظيم فقدمن - رضي الله عنهن- قوله × على قولهن ورأيه على رأيهن، ولم يجدن في أنفسهن حرجًا مما قضي به وسلموا بأمره تسليمًا، فمن ذلك ما رواه أبو أُسَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِّ × يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ × لِلنِّسَاءِ: «اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ»(١٩)

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «يَرْحَمُ اللهُّ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُّ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ شَقَقْنَ أَكْنَفَ مُرُوطِهِنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»(٢٠)

والعجيب أن ترى المسلمات اليوم يَجُبْنَّ الشوارع ذاهبات آيبات كاسيات عاريات يحاربن الحجاب، ويراوغن رسولهن × فليس ثم إجابة لأمره، أو طاعة له، وهن -والله- الخاسرات، ولكن على الجانب الآخر المشرق هناك اليوم نساء عابدات طاهرات، مقرَّات في بيوتهن فنسأل الله أن يكثر من أمثالهن.

وفي أمر مهمٍّ من أمور النساء ألا وهو الزواج واختيار شريك الحياة

---

(١٩) رواه أبو داود ٥٢٧٢، صحيح أبي داود ٣٦٩/٤.

(٢٠) رواه البخاري ٤٧٥٩، أبو داود ٤١٠٢.

قدمن رضي الله عنهن رأيه × على رأيهن واختياره على اختيارهن، فمن ذلك ما رواته فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ قالت: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِّ ×: «إِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي فَآذَنْتُهُ فَخَطَبَهَا مُعَاوِيَةُ وَأَبُو الْجَهْمِ بْنُ صُخَيْرٍ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ × أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَرَجُلٌ تَرِبٌ لاَ مَالَ لَهُ وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَرَجُلٌ ضَرَّابٌ لِلنِّسَاءِ وَلَكِنْ أُسَامَةُ فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا أُسَامَةُ أُسَامَةُ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِّ × طَاعَةُ اللهِّ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ خَيْرٌ لَكِ قَالَتْ فَتَزَوَّجْتُهُ فَاغْتَبَطْتُ بِهِ»(٢١)

وعن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ × فَذَكَرْتُ لَهُ امْرَأَةً أَخْطُبُهَا فَقَالَ ادْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا فَأَتَيْت امْرَأَةً مِنْ الأَنْصَارِ فَخَطَبْتُهَا إِلَى أَبَوَيْهَا وَأَخْبَرْتُهُمَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ × فَكَأَنَّهُمَا كَرِهَا ذَلِكَ قَالَ فَسَمِعَتْ ذَلِكَ الْمَرْأَةُ وَهِيَ فِي خِدْرِهَا فَقَالَتْ إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِّ × أَمَرَكَ أَنْ تَنْظُرَ فَانْظُرْ وَإِلاَّ فَأَنْشُدُكَ كَأَنَّهَا أَعْظَمَتْ ذَلِكَ قَالَ فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا فَتَزَوَّجْتُهَا فَذَكَرَ مِنْ مُوَافَقَتِهَا»(٢٢)

وفي أمر من الأمور التي تأباها كثير من النساء ألا وهو إرضاع شخص كبير السن تمتثل سهلة بنت سهيل لأمره × في ذلك، لما رآه × من مصلحة اقتضاها السياق الاجتماعي الذي تعيش فيه هذه الأسرة، وهذه الفتوى منه × خاصة بهذه الأسرة ولا تنسحب على غيرها إلا لضرورة ليس هذا موضع بسطها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ جَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ إِلَى النَّبِيِّ × فَقَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِّ إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ الْكَرَاهِيَةَ مِنْ دُخُولِ سَالِمٍ مولى أَبِي حُذَيْفَةَ عَلَيَّ فَقَالَ النَّبِيُّ ×: أَرْضِعِيهِ قَالَتْ كَيْفَ أُرْضِعُهُ وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِّ × وَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ فَفَعَلَتْ فَأَتَتْ النَّبِيَّ × فَقَالَتْ مَا رَأَيْتُ فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ شَيْئًا أَكْرَهُهُ بَعْدُ»(٢٣)

وكان أمره × يختلط بلحمهن وشحمهن، لا ينتظرن حتى يأمرهن × في

---

(٢١) رواه مسلم ١٤٨٠، الترمذي ١١٣٥، النسائي ٣٢٢٢، ابن ماجة ١٨٦٩.

(٢٢) رواه الترمذي ١٠٨٧، النسائي ٣٢٣٥، ابن ماجة ١٨٦٦، صحيح ابن ماجة ١/ ٦٠٠.

(٢٣) رواه البخاري ٤٠٠٠، مسلم ١٤٥٣، أبو داود ٢٠٦١، النسائي ٣٢٢٣، ابن ماجة ١٩٤٣.

الوقت واللحظة والحال، ولكن يحفظن أمره السابق عن ظهر قلب ويستظهرنه في وقت الحاجة حتى إن كان هذا الأمر على حساب أقرب الأقربين منهن أو على حساب العواطف الجياشة، فالعواطف عندهن مرتبطة بالإسلام والإيمان ولا يتركنها للهوى يفعل بها ما شاء من جاهلية جهلاء، فعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَتْ: «لَمَّا جَاءَ نَعْيُ أَبِي سُفْيَانَ مِنْ الشَّأْمِ دَعَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِصُفْرَةٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَمَسَحَتْ عَارِضَيْهَا وَذِرَاعَيْهَا وَقَالَتْ إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا لَغَنِيَّةً لَوْلاَ أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ × يَقُولُ لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثٍ إِلاَّ عَلَى زَوْجٍ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»(١)

وكان يستوي في تنفيذ أمره × البعيد والقريب، بل كانت جميع المسلمات قريبًا منه، فهو بمثابة أبيهم العطوف بهم والحاني عليهم، فهذه فاطمة ابنته × تمتثل لأمره وإن كان فيه مشقة بها، فقد ذهب عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو وفاطمة يسألان رسول الله × خادمًا فقال رضي الله عنه للنبي ×: «إِنَّ فَاطِمَةَ جَرَّتْ بِالرَّحَى حَتَّى أَثَّرَتْ فِي يَدِهَا وَحَمَلَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى أَثَّرَتْ فِي نَحْرِهَا فَلَمَّا أَنْ جَاءَكَ الْخَدَمُ أَمَرْتُهَا أَنْ تَأْتِيَكَ فَتَسْتَخْدِمَكَ خَادِمًا يَقِيهَا حَرَّ مَا هِيَ فِيهِ قَالَ اتَّقِي اللهَّ يَا فَاطِمَةُ وَأَدِّي فَرِيضَةَ رَبِّكِ وَاعْمَلِي عَمَلَ أَهْلِكِ فَإِذَا أَخَذْتِ مَضْجَعَكِ فَسَبِّحِي ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَاحْمَدِي ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَكَبِّرِي أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ فَتِلْكَ مِائَةٌ فَهِيَ خَيْرٌ لَكِ مِنْ خَادِمٍ قَالَتْ رَضِيتُ عَنْ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ»(٢)

وَجَلَّ»(٢)

وكما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ﴾ [آل عمران١٦٣] كذا هناك مراتب ودرجات يختص بها بعض الناس عن بعض نظرًا لشدة الإيمان واليقين بقوله × وإن كان قوله × ظاهره المخالفة لأعراف الناس، فالصحابيات في هذا يتفاوتن ولهن فهوم خاصة لا يستطيعها كل أحد من الناس في اليقين

(١) رواه البخاري١٢٨٠، مسلم ١٤٨٦، أبو داود ٢٢٩٩، الترمذي ١١٩٥، النسائي ٣٥٠٠، ابن ماجة ٢٠٨٤.

(٢) رواه البخاري ٣١١٣، مسلم ٢٧٢٧، أبو داود ٢٩٨٨، الترمذي ٣٤٠٨.

بـأمره × فمـن ذلـك مـا رواه عَبْـدِ اللهِّ بْـن عُتْبَـة أَنَّ مَيْمُونَـة زَوْجَ النَّبِـيِّ × اسْتَدَانَتْ فَقِيلَ لَهَا يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ تَسْتَدِينِينَ وَلَيْسَ عِنْدَكِ وَفَاءٌ قَالَتْ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ × يَقُولُ مَنْ أَخَذَ دَيْنًا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ أَعَانَهُ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ»(١)

فهذا الامتثال لأمره × والثقة فيه لا يستطيعها إلا الأفذاذ من هذه الأمة، ولا تُطالب بها عامة الأمة إنما هي لخواص الناس.

ولما امتثلت الصحابيات الجليلات لأمره × حصَّلنَّ من الخير والبركة ما جعل حياتهن سعادة دائمة فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ أَتَانِي أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِّ × فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِّ × قَوْلاً فَسُرِرْتُ بِهِ قَالَ لاَ تُصِيبُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعَ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ فُعِلَ ذَلِكَ بِهِ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ فَحَفِظْتُ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ اسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهُ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي قُلْتُ مِنْ أَيْنَ لِي خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي فَخَطَبَنِي × إِلَى نَفْسِي. قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَقَدْ أَبْدَلَنِي اللهُّ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْرًا مِنْهُ رَسُولَ اللهِّ × »(٢)

فالحق ما قالت أم سلمة؛ فرسول الله × خيرٌ من ملء الأرض من أبي سلمة، وخير من ملء الأرض من المسلمين أجمعين، فهنيئًا لأم سلمة الطاعة والامتثال لأمره ×.

فهل لنسائنا من عودة حميدة لامتثال أمره × والانقياد له والإذعان لطاعته، لتكون حياتهن خيرًا وبركة وسعادة وهناءً!.

---

(١) رواه النسائي ٤٦٨٧، ابن ماجة ٢٤٠٨، السلسلة الصحيحة ١٠٢٩.

(٢) رواه مسلم ٩١٣، أبو داود ٣١١٥، الترمذي ٣٥١١، ابن ماجة ١٥٩٨.

أطِبَّاءُ المحْرُوسَة.. فِي الطِّينِ رُؤُوسُهُمْ مَغْرُوسَة! ٢/٢

تكلمنا في مقالة سابقة عن بعض الممارسات الخاطئة لفئة من الأطباء ليست بالقليلة في محيط مصر المحروسة وكيف أنها أساءت لطائفتها كلها، وقد رأينا أن نُتْبِعَهَا أختها.

فقد كانت المقالة الأولى سببًا في انهيال رسائل كثيرة عليَّ من الأطباء يتهموني بأشياء أنا منها بريء، من أهمها أنني كنت أود أن أكون طبيبًا وفشلت، وهذا الاتهام لا يتأتى إلا من عيون لا تبصر الحق، ولا ترى إلا تحت أقدامها فحسب، فعندما تتكلم في مشكلة تخص بعض فئات المجتمع ويكون الحل في فقدها لبعض المكاسب المادية، يتهمونك بأنك حاقد عليهم أو أنك تريد أن تكون مثلهم، ولا يرون أنك مهموم بشئون الأمة تعمل لرفعتها، وتخاف على أبنائها من أبنائها، ولا يرون فيك الناصح الأمين لإخوانه، لذا عندما كنت أذكر حديث النبي × لكعب بن مالك الذي يأمره فيه بالتنازل عن حر ماله أعجب من هذه النفوس التي يصعب أن تتكرر في دنيا الناس، فقد روى كَعْبٌ بن مالك أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ × وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا فَكَشَفَ سِتْرَ حُجْرَتِهِ فَنَادَى يَا كَعْبُ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ × قَالَ ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا وَأَوْمَأَ إِلَى الشَّطْرِ قَالَ قَدْ فَعَلْتُ قَالَ قُمْ فَاقْضِهِ»(١)

فقد يكون امتثال أمر النبي × في أمر من الأمور التعبدية سهلاً ميسورًا وقد يستطيعه كثير من الناس، أما أن يأمر النبي × أحدهم بالتنازل عن حر ماله فهذا صعب عسير على النفوس التي جُبلت على حب المال؛ قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر٢٠] ولكن الصحابة نجحوا أيما نجاح في هذه الاختبارات الشاقة.

ولم يكن أمر النبي × لكعب بن مالك خارجًا عن الإطار العام لحياة المسلمين بل هو لصالح المسلمين، فابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ فقير وكعب بن مالك غني ومن المصلحة أن يترك له كعب الشطر من ماله، ولم يغضب كعب

---

(١) رواه البخاري ٤٥٧، مسلم ١٥٥٨، أبو داود ٣٥٩٥، ابن ماجة ٢٤٢٩.

ولم يقل: إن النبي × حاقد عليَّ لأنني غني وهو فقير، بل قال سمعًا وطاعًة يا رسول الله، لأنه يدرك تمامًا أن بهذا الحكم تنصلح حياة المسلمين أجمعين.

ومن المصلحة العامة أيضًا أن يعود الأطباء إلى حظيرة الإسلام من خلال المقترحات التي سوف ترد في هذا المقال.

كما أن القراء الذين أبدوا إعجابهم وتضامنهم معي فيما قلته كانوا أكثر من المعترضين بكثير، بل ذكر لي بعضهم ممارسات عدة غير التي ذكرتها في مقالتي الأولى من أهمها أن بعض الأطباء الذين يعملون في الوحدات الصحية بالأرياف يقومون –في غياب الرقابة- بعمل تذاكر كشف للمرضى بمقابل مادي مخالفين بذلك قانون مجانية الكشف والعلاج في هذه الوحدات، وبالطبع يوضع هذا المقابل المادي في جيوبهم الخاصة، ويا ويل من يشتكي للجهات الرقابية.

كما ذكر لي بعضهم ويعملون بالشركات الخاصة والعامة والتي يوجد بها طبيب، أن هؤلاء الأطباء يصرفون دواءً للمرضى على حسب ثقلهم الوظيفي؛ فإن كان مديرًا كان حجم الاهتمام به أعلى والدواء الذي يُصرف له أغلى ثمنًا وأكثر عدد، وإن كان من العاملين الصغار فليس ثم اهتمام ولا دواء ذا قيمة، فأي دين وأي قيم وأي أخلاق لهؤلاء المرتزقة!.

كما قال لي أحدهم أنه سأل أحد مشايخه قديمًا فقال له: لماذا يسكت العلماء والمشايخ عن هذه الطائفة؟! ولا يذكرونها ويحذرون الناس منها على المنابر وفي الندوات العامة؟.

فقال له على الفور: لأن نصف المشايخ أولادهم من الأطباء، والنصف الآخر يأكل عند الأطباء بعد صلاة الجمعة! فأنى له ذكرهم بما يسوءهم! فالمشايخ لا يعالجون الأمراض الاجتماعية الناشئة عن تطور المجتمعات المدنية والتي غالبًا لا تكون مسطرة في الكتب التي يدرسونها.

كما ذكر لي أحدهم قول الطبيب الكبير (بل الشيطان الكبير) وهو ينصح أحد تلامذته من الأطباء الصغار والذي كاد أن يسطره بماء المُهل، قال: (هم خدمٌ لنا في العامة ونحن خدمٌ لهم في الخاصة) أي: إن عامة الشعب بمثابة الخدم لنا وهم في المستشفى العام؛ نعنفهم ونكيل لهم الشتم إن لزم الأمر، ويجب علينا أن نكون بمثابة الخدم لهم عندما يكونون في عيادتنا

الخاصة ويدفعون لنا أموالهم؛ فيجب علينا أن نَبُش في وجوههم ونُلين لهم القول.

وذكر لي أخر أن أحد الأطباء -لا يشك في نزاهته- قال له: إن المستشفيات العامة بالنسبة لنا حقل تجارب على الفقراء والمساكين!.

لذا، رأيت أن ألحق المقالة السابقة بأختها حتى نُظهر ما كان خافيًا، ونوضح ما ظهر بغير صورته، كما نقترح بعض الحلول الواقعية التي من شأنها أن تسير بالمجتمع المسلم في مساره الصحيح بعيدًا عن التنافس المادي بين فئاته بهذا الشكل الفوضوي.

ففي هذه المقالة نستأنف ما بدأناه، ونتكلم عما تركناه، فنقول في هذا المقام إن السبب في أن كثيرًا من أطباء اليوم أصبحوا صرعى جمع المال أن أكثرهم نشأ وتربى في بيئة فقيرة –وليس الفقر عيبًا-(١) ولكن عندما يفتقر هذا الفقر إلى القيم والمبادئ والأخلاق وبالأحرى الإسلام فإنه يكون معدوم الضمير يلهث وراء إرضاء شهوته التي حُرم منها سنين طوال، فيُعمل سكينه في جسد الأمة تقطيعًا وذبحًا لا يأبه لآلمها ولا صراخها، بل يخدع نفسه قائلاً: أنا أداوي الأمة! ووالله ما هو إلا داء الأمة.

فالأطباء قديمًا كانوا أولاد عائلات كبيرة ذات مكانة اجتماعية رفيعة، فكانوا يتعاملون مع الأمة –رغم علو شأنهم الاجتماعي- كأنهم خدم لها، وكانوا لا يسمحون لأنفسهم أن يكون لهم عيادات خاصة لأنها في نظرهم عيب خطير، وخطر كبير على أخلاق المهنة ومبادئها، وكان الداخل على هؤلاء الأطباء ينشرح صدره وتقر عينه، لأنه يرى نماذج من الأدب العالي، والاحترام الجم، وأخلاق الملوك والأمراء والأكابر، أما الآن فحدث ولا حرج عن أولاد الفقراء الذين تعلموا الطب وليس لهم نصيب من أخلاق الإسلام، حدث عن الرذائل وحدث عن الفوضى الأخلاقية، وحدث عن كل ما يشوه وجه هذه المهنة العريقة!.

---

(١) فهذا من الصفات المركبة كما في الحديث القدسي (ويكره ربنا الفقير المتكبر) فالله لا يكره الفقير ولكن إذا أحاط الفقر الكبر فهذا عيب خطير.

وكان هذا الزمان لا يخلوا من الأطباء الفقراء، ولكنهم تخلقوا بأخلاق الإسلام من العزة في غير كبر، والرفعة في غير زهو، فأبوا أن تكون لهم عيادات خاصة واكتفوا برواتبهم وإن كانت قليلة ولكن مع المكانة الاجتماعية التي حظوا بها في مجتمعهم.

وعلى الرغم من أن كثيرًا من التجار كان أغنى من هؤلاء بكثير، لكنَّ المجتمع كان يرفع الأطباء ويجلهم لأنهم ملائكة الرحمة الذين أخلصوا عملهم لله وللمجتمع، وكانت المسألة بالنسبة لهؤلاء الأطباء ليست غنى أو فقر بل كانت المكانة الاجتماعية وتقدير الناس لجهدهم في واقع الحياة؛ لذا كان المجتمع يُكِّنُ لهم كل احترام وتقدير.

أما وقد خلفوا من بعدهم خلفٌ أضاعوا آداب المهنة وأصبحوا شياطين العذاب، فإن المجتمع الآن لا يُكِّنُ لهم شيئًا من الاحترام أو التقدير، فالأمر كما قال الأول: مَدَحَنَا وأعطيناه، أي: ليس له فضل في مدحنا ما دام قد أخذ أجره، وعلى غرار هذا المثال نظر مجتمعنا إلى الأطباء، فقد أخذوا أجرهم وأعطيناهم، فلا فضل لهم ولا كرامة.

وقد سمعت أن بعضًا من هؤلاء الذي عاش فقيرًا دهرًا طويلا دخله اليومي ما يقارب الخمسة الآف جنيه أي؛ ما يعادل مليون ونصف سنويًا، في حين أن ٤٠ بالمئة من شعب المحروسة دخله السنوي لا يتعدى ستة آلاف جنيه، فهل هذا من عدالة توزيع الأرزاق على الناس؟! وهل سمح الإسلام بمثل هذا النمط أن يعيش بين الناس؟!.

ونظرًا لأننا بعيدين كل البعد عن منهاج الإسلام الذي إن وجُد في واقع حياة الناس فلن نجد لهذه الفوضى أثرًا في حياتهم بل سيكون الجميع في سعادة، الغني والفقير والطبيب وعامل القمامة، لأنهم سيعلمون جميعًا أن هذه مجرد مهن وخيرهم ليس بمهنته، ولكن خيرهم من يكون ناجحًا في مهنته مجيدًا لها، نافعًا لغيره من أبناء جلدته، متأثرين بقوله ×: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينًا أو تطرد عنه جُوعًا ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضى**

يوم القيامة ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل» [٢].

فلم يقل النبي × خير الناس الأطباء أو أصحاب المهن الجليلة، بل جعل المدار هنا على صلاح الفرد في نفسه بالتقوى والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، ونفعه لغيره من العباد وتقديم الخير للمجتمع الإسلامي.

أقول نظرًا لبعدنا عن منهاج الإسلام فأنا أقترح خُطة يمكن أن تقوم بها الحكومات لمعالجة أصحاب هذه المهنة إلى حين قيام دولة الإسلام، فمالا يُدرك كله لا يترك جُله.

من عناصر هذه الخطة أن تقوم الحكومات بشراء الأجهزة التي ملأت العيادات الخاصة والمستشفيات الخاصة، ووضعها في المستشفيات العامة، فبعض من هذه الأجهزة لا يوجد لها نظير في المستشفيات العامة.

الخطوة الثانية: إلزام الأطباء بالعمل داخل المستشفيات العامة المجهزة بأحدث الأجهزة وعدم السماح لهم بفتح العيادات الخاصة، وإعطائهم المقابل المادي الذي يرضي غرورهم من ألف جنيه إلى عشرين ألفًا شهريًا وذلك بحسب خبرة الطبيب وكفاءته[٣]، وأعتقد أن هذا كافيًا، ومن لا يكفيه هذا الراتب أقول له إن بلدًا متقدمًا عالميًا مثل اليابان لا يتعدى الفرق بين أعلى راتب في الدولة وأقل راتب نسبة الثلاثون بالمئة!.

الخطوة الثالثة: هي عمل تذاكر أو مقابل مادي للكشف الطبي يبدأ من جنيه واحد، وخمسة جنيهات وعشر ومائة ومالا ليس له حد، تؤخذ من الفقراء والأغنياء وأغنياء الأغنياء للإنفاق على هذه المؤسسات، وكما قلنا سابقًا وضربنا مثال بما فعله الدكتور محمد غنيم في مستشفى الكلى بمدينة المنصورة حيث قام بإجراء بعض العمليات للملوك والأمراء وكان يأخذ منهم تبرعات ومقابل مادي كبير جدًا كلٌ بحسبه، وكانت تجربة ناجحة

---

(٢) الصحيحة ٤٢٧.

(٣) تقييم الدخل هذا أو ما يسمى الراتب حُرر في العام ٢٠٠٩م.

أسفرت عن وجود هذا الصرح العملاق، كما كان للفقراء نصيبهم أيضًا من العلاج المجاني وشبه المجاني!.

الخطوة الرابعة: وهي مرتبطة بالمجتمع المدني من عدة أوجه؛ الأول: طريقة التربية المتبعة من قبل أولياء الأمور لا بد أن تتغير في بعض مساراتها، حيث يجب التربية على مبادئ وقيم الإسلام من حيث النفع للمجتمع، فعلى سبيل المثال هل وجدت أبًا يربط على كتف ابنه ويقول له اجتهد يا بني كي تكون مدرسًا، أو اجتهد يا بني كي تكون محاسبًا، لا والله ولكن الجميع –إلا من رحم الله- يقول اجتهد يا بني كي تكون طبيبًا، وأولى بهؤلاء جميعًا أن يقولوا لأبنائهم: اجتهد يا بني كي تكون فردًا صالحًا في المجتمع خادما له مُعليا إياه، أيًا كانت مهنتك أو وظيفتك.

الثاني: يجب على الناس الاعتناء بما يسمى الطب النبوي، مع اعتقادي الجازم أن هذا الدين، دين هداية في المقام الأول وشفاء لما في الصدور، ويأتي في المقام الثاني شفاء الأبدان، ولكنَّ النبي × ترك مساحة كبيرة للعقلاء والعباقرة من هذه الأمة للبحث عن الأدوية وأسباب الشفاء في غير القرآن والسنة لتتواصل حياة البشرية وسعادتها بالأسباب المادية.

أقول مع اعتقادي الجازم بهذا، فأرى أيضًا أن نعظم من جانب الطب النبوي والطب البديل في غير إسراف أو ادعاء القدرة على شفاء جميع الأمراض، وتدشين ثقافة العلاج هذه من خلال الإعلام الإذاعي والتلفزيوني.

أيها الأعزاء هذه بعض الأفكار والاقتراحات التي من شأنها أن تعالج خطر الأطباء الذين استولوا على أموال الناس، وإن طُرحت هذه المشكلة على العقلاء من الأمة قد يجدوا لها حلولاً أخرى أعمق وأرضى لأطراف المجتمع جميعًا.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما علمنا وأن يعلمنا ما ينفعنا إنه على كل شيء قدير. والحمد لله رب العالمين.

العطاءات الربّانيّة لسيّد البريّة

إن قدر محمد × لا يعرفه إلا ربُّ محمد × لذا؛ أعطاه ما لم يُعْطِ أحدًا من العالمين قبله أو بعده، ولا شك أن عطاءه النبوة والرسالة هو من أعظم العطاءات على الإطلاق قال تعالى ممتنًّا عليه بهذه النعمة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، أي غافلاً، كقوله جل ثناؤه: ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه٥٢]، والمعنى: كنت غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك وأرشدك، ولم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ [الشورى٥٢]

وكان من أول هذه العطاءات الربانية لسيد البرية أنه لا ينسى شيئًا من القرآن الذي نزل عليه ألبتَّة، وهذا أنفع له خاصة وأنه النبي الأمي × قال تعالى: ﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى﴾ [الأعلى٦] فقد كان يقرأ عليه جبريل ما يقرأ من الوحي، وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه.

قال مجاهد: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل له: كفيتكه، وعنه أيضًا قال: كان النبي × إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي × بأولها، مخافة أن ينساها؛ فنزلت: "سنقرئك فلا تنسى" بعد ذلك شيئا، فقد كفيتكه.

وفي عام الحزن الذي مات فيه أحباؤه؛ زوجه خديجة، وعمه أبُو طالب أراد الله أن يسليه بمنح وعطاءات وهبات لم تكن لأحد قبله أو بعده، فمنحه رحلة الإسراء والمعراج؛ قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[الإسراء١].

قال ابن كثير: (بعبده) يعني؛ محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه (لَيْلاً) أي: في جنح الليل (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) وهو مسجد مكة (إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) وهو بيت المقدس الذي هو إيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فَأَمّهم في مَحِلّتهم، ودارهم، فدل على

أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

ولقد رأى من آيات ربه الكبرى في هذه الليلة الليلاء؛ فقد صلى ببيت المقدس، والتقى بالأنبياء، وصعد إلى السماوات العُلى، ورأى الجنة والنار، وتقدم إلى سدرة المنتهى ودنا من ربه -جل وعلا- حتى قال ابن عباس، عُرج بالنبي × حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

وقد فرضت عليه وعلى أمته في هذا المقام العظيم الصلاة، وقد كانت خمسين صلاة في اليوم والليلة، ولكنه عاد إلى ربه ليخفف عن أمته فكانت خمسًا في العمل وخمسين في الأجر، فهل نستأهل نحن المسلمون هذه البركات وهذه العطاءات؟!.

وقد تحدث النبي ببعض العطاءات والمنح التي أهدها الله له، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ×: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**»(٤)

وعنه رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ × يَقُولُ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي**»(٥)

وعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ × قَالَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي**

(٤) (صحيح): مسلم ٤٠٨، أبو داود ١٥٣٠، النسائي ١٢٩٦.

(٥) (صحيح): البخاري ٧٠١٣، مسلم ٥٢٣، الترمذي ١٥٥٣، النسائي ٣٠٨٧.

وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(٦)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ × قَالَ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»(٧)

وعندما أراد النبي × فتح أم القرى؛ مكة، ورغم حرمتها إلا أن الله تعالى أحلها له ساعة من النهار لمصلحة الأمة الإسلامية جمعاء، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ × مَكَّةَ قَامَ فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَإِنَّهَا لا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي**» (٨).

وبعد هذا الفتح العظيم لأم القرى دخل الناس في دين الله أفواجًا، قال تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر بتمامها] قال ابن كثير: المراد بالفتح ها هنا فتح مكة قولاً واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة.

وهذا من فضل الله تعالى على هذا النبي الذي تميز بهذه الميزة عن سائر الأنبياء والرسل، فلم يدخل الناس في دين أحد من الأنبياء غيره أفواجًا.

---

(٦) (صحيح): البخاري ٣٣٥، مسلم ٥٢١، النسائي ٤٣٢.

(٧) (صحيح): البخاري ٢٩٧٧، مسلم ٥٢٣، الترمذي ١٥٥٣، النسائي ٣٠٨٧.

(٨) (صحيح): البخاري ٢٤٣٤، مسلم ١٣٥٥، أبو داود ٢٠١٧، ابن ماجة ٢٦٢٤.

وبعد أن أتم رسول الله × الدعوة وبلغ الرسالة استعد للرحيل لملاقاة ربه عز وجل، ولكنَّ الله جلت قدرته قد هيئه وأعد له عطاءً ما بعده عطاء، رفع الله له ذكره في الآفاق؛ قال تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح٤] روى الضحاك عن ابن عباس، قال: يقول له: لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها. ولو أن رجلاً عَبَدَ اللهَّ جَلَّ ثناؤه، وصدَّق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمدًا رسول اللهّ، لم ينتفع بشيء وكان كافرًا.

وقيل: أي أعلينا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه.

وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات.

وكل هذه التفاسير صحيحة وهي من باب التبيين والتمثيل؛ فالثقلان الإنس والجن والسماء والأرض تعرف من هو محمد ×، وهذا من عطاء الله له أن جعل اسمه قرينٌ باسمه حتى قال شاعر الإسلام؛ حسان بن ثابت:

شَقَّ لَهُ مِن إسمِهِ كَي يُجِلَّهُ فَذو العَرشِ مَحمودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

فأي عطاء ممنوح لهذا النبي، وأي خير يغدو ويروح حول هذا النبي، فاللهم صلِّ وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد.

وما كان لهذه العطاءات والمنح الربانية أن تنتهي بموته × بل هناك عطاءات ومنح بعد مماته × وهي خير له ولأمته.

فلقد كان رسول الله × رحيمًا بأمته أشد الرحمة شفوقًا بها أعظم الشفقة فاستغل عطاءات الله ومنحه له ليسخرها لأمته، ويزللها لهم ليدخلهم جنة ربهم فعَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ × تَلا قَوْلَ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [إبرهيم٣٦] وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة١١٨] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى فَقَالَ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ يَا جِبْرِيلُ: اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسَأَلَهُ

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِّ × بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللهُّ يَا جِبْرِيلُ: ادْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ» (٩).

وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًا كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ يَا فُلَانُ اشْفَعْ يَا فُلَانُ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ × فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ» (١٠).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِّ ×: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ. قَالَ: فَيَفْزَعُ النَّاسُ ثَلَاثَ فَزَعَاتٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا أُهْبِطْتُ مِنْهُ إِلَى الْأَرْضِ وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: إِنِّي دَعَوْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ دَعْوَةً فَأُهْلِكُوا وَلَكِنْ اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: إِنِّي كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ - ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ×: مَا مِنْهَا كَذِبَةٌ إِلَّا مَا حَلَّ بِهَا عَنْ دِينِ اللَّهِ- وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: إِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: إِنِّي عُبِدْتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا قَالَ: فَيَأْتُونَنِي فَأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ. قَالَ ابْنُ جُدْعَانَ قَالَ أَنَسٌ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ × قَالَ: فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا فَيُقَالُ مُحَمَّدٌ فَيَفْتَحُونَ لِي وَيُرَحِّبُونَ بِي فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا فَأَخِرُّ سَاجِدًا فَيُلْهِمُنِي اللَّهُ مِنْ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ فَيُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ

(٩) (صحيح): مسلم ٢٠٢.

(١٠) (صحيح): البخاري ٤٧١٨، مسلم ١٠٤٠، النسائى ٢٥٨٥.

تُشَفَّعْ وَقُلْ يُسْمَعْ لِقَوْلِكَ. وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» (١١).

ولم تكن الشفاعة وحدها على أرض المحشر بل هناك المزيد؛ أعطاه الله نهرًا في الجنة يسقي منه أمته بيده الشريفة حتى لا يظمأوا في هذا اليوم ذي الهوائل النازلة والنوازل الهائلة الذي يُظْمِأُ الأمم جميعًا، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: «بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ × ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ثُمَّ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ فَقُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»(١٢).

فكل هذه العطاءات والمنح وإن كانت لمحمد × ظاهرًا فهي للمسلمين من باب التبعية، وهي تصب في مصلحة المسلمين، ولكن هل المسلمون أهلٌ لهذه العطاءات؟!، وهل المسلمون يستحقون كل هذه التضحيات التي يسعى إليها سيدهم ونبيهم ورسولهم محمد ×؟!، وهل هم أوفياء لشريعته ومنهاجه، يحكمونه فيما شجر بينهم ثم لا يجدون في أنفسهم حرجًا مما قضى به وحكم؟! أم إنهم معرضون عن شريعته ومنهاجه ويفضلون مناهج الغرب والشرق عليها؟!.

---

(١١) (صحيح): البخاري ٧٤٤٠، مسلم ١٨٢، الترمذي ٢٤٣٤، النسائي ١١٤٠.

(١٢) (صحيح): البخاري ٤٩٦٤، مسلم ٤٠٠، أبو داود ٧٨٤، الترمذي ٣٣٥٩، النسائي ٩٠٤.

الخرافة في الحديث عن الفراسة

إنَّ الحديثَ عن الفراسة ومواقف المتفرسين كأنه حديث عن الخرافة في أبهى صورها، من العسير تصديقه فالقلوب التي تربَّت على الماديَّة وزخم الحياة الحالية لا تستطيع استساغة مثل هذه الشفافية والرُّوحية بسهولة ويسر، أما القلوب العامرة بالإيمان فتصدِّق ذلك، فهو قريب إلى نفسها وإن كانت لم تجربه.

والفراسة على أنواع، الأولى: فراسة الصالحين والعاملين بكتاب ربّ العالمين وسنة سيد المرسلين × ومن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وهي أصدق أنواع الفراسة، وأصلها من الحياة والنور الذي يهبه الله تعالى لمن يشاء من عباده فيحيا القلب بذلك، ويستنير فلا تكاد فراسته تخطيء. قال أبو الفوارس الكرماني: من غضَّ بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة.(١٣) قال الله: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام١٢٢]

الثاني: فراسة الرّياضة والجوع والسّهر والتخلّي، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا على ولاية وكثير من الجهال يغتر بها وللرهبان فيها وقائع معلومة وهي فراسة لا تكشف عن حقٍّ نافع ولا عن طريق مستقيم بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبارة الرؤيا.

الثالث: الفراسة الخلقية وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم واستدلوا بالخَلق على الخُلق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل وبكبره وبسعة الصدر وبعد ما بين جانبيه على سعة خُلق صاحبه واحتماله وبسطته

---

(١٣) صفة الصفوة ٢/٢٤٧.

وبضيقه على ضيقه وبخمود العين وكلال نظرها على بلادة صاحبها.(١٤)

ولقد صنف في هذا النوع الأخير من علماء المسلمين الإمام الفخر الرازي وأبدع أيما إبداع في رسالة له أسماها: (علم الفراسة)، وصنف أيضًا محمد بن الصوفي كتابًا أسماه: (السياسة في علم الفراسة) ولكنه خلطه بالتنجيم وتأثير الأبراج والأفلاك، وكذا علي بن محمد الثعلبي الشافعي المعروف بابن الدريهم له كتاب بعنوان: (سلم الحراسة في علم الفراسة)، وقد أفرد الإمام ابن القيم لها فصلاً في كتابه مدارج السالكين.

والفراسة عند هؤلاء المصنفين عبارة عن الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة(١٥)والاستدلال بهيئات الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله(١٦).

وقد دل الكتاب والسنة على هذا، قال الله تعالى: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر٧٥]، قال مجاهد: المتفرسين. وقال ابن عباس: للناظرين وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين.

وللفراسة سببان أحدهما: جودة ذهن المتفرس وحدة قلبه وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلّة على المتفرّس فيه؛ فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطيء للعبد فراسة، وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته بين بين.(١٧)

وإن كان أئمة المسلمين فصلوا في السمات والعلامات المادية الظاهرة في جسم الإنسان والتي يُعرف بها شيء من الفراسة، وهي فراسة مكتسبة عن طريق التعلم والبحث والتجربة والاستقراء، فإن ما يهمنا في هذا المقام هو الفراسة الفطرية في صفائها ونقائها عند أصحابها، الفراسة النابعة من السجايا والطباع التي وهبها الله لبعض عبادة والمرتبطة بصفة مباشرة

---

(١٤) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٨.

(١٥) الفراسة –للإمام الفخر الرازي- ص٢٠.

(١٦) قاله الراغب الأصفهاني.

(١٧) مدارج السالكين ٢/ ٤٨٩.

بالإيمان والتقوى والصلاح.

فها هم أصحاب نبينا × تتمثل فيهم هذه الخصلة واضحة جلية، فعن أبي سعيد قال: خطب رسول الله الناس فقال: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا فَعَجِبْنَا لَهُ وَقَالَ النَّاسُ انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ × عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ وَهُوَ يَقُولُ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ × هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ**»[١٨].

وهذا عمر: قيل: إنه كان إذا حدثه الرجل بالحديث فيكذب فيه الكلمة والكلمتين، فيقول عمر: احبس هذه؛ احبس هذه، فيقول الرجل: والله كل ما حدثتك به حق غير ما أمرتني أن أحبسه. [١٩]

وعن ابن عمر قال: بينما عمر رضى الله عنه جالس إذ رأى رجلاً فقال قد كنت مرة ذات فراسة وليس لي رأي إن لم يكن هذا الرجل ينظر ويقول في الكهانة شيئًا. أدعوه لي فدعوه فقال: هل كنت تنظر وتقول في الكهانة شيئًا؟! قال: نعم. [٢٠]

وروى الطبري أنَّ عمر لما استعرض الجيوش للجهاد سنة ١٤ مرت أمامه قبائل السكون اليمنية مع أول كندة يتقدمهم حصين بن نمير السكوني ومعاوية بن حديج أحد الصحابة الذين فتحوا مصر ثم كان أحد ولاتها، فاعترضهم عمر، فإذا فيهم فتية دلم سباط، فأعرض عنهم ثم أعرض ثم أعرض، حتى قيل له: ما لك ولهؤلاء؟ فقال: إني عنهم لمتردد، وما مر بي قوم من العرب أكره إليَّ منهم. فكان منهم سودان بن حمران وخالد بن ملجم

---

(١٨) رواه البخاري ٣٩٠٤، مسلم ٢٣٨٢، الترمذي ٣٦٦٠.

(١٩) البداية والنهاية ١٣٨/٧.

(٢٠) الأذكياء لابن الجوزي.

وكلاهما من البغاة على عثمان[٢١].

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه، يحكي عنه أنس بن مالك فيقول: دخلت على عثمان وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه فقلت: أوحي بعد رسول الله × فقال: لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة[٢٢]

وهذا علي رضي الله عنه، يقول عنه الأصبغ بن نباتة بينما علي رضي الله عنه جالس في مجلسه إذ سمع ضجة فقال: ما هذا؟ فقالوا رجل سرق ومعه من يشهد عليه فأمر بإحضارهم فدخلوا فشهد شاهدان عليه أنه سرق درعًا، فجعل الرجل يبكي ويناشد عليًّا أن يتثبت في أمره فخرج علي إلى مجتمع الناس بالسوق فدعا بالشاهدين فناشدهما الله وخوفهما فأقاما على شهادتهما فلما رآهما لا يرجعان دعا بالسكين، وقال ليمسك أحدكما يده ويقطع الآخر فتقدما ليقطعاه فهاج الناس واختلط بعضهم ببعض، وقام علي عن الموضع فأرسل الشاهدان يد الرجل وهربا فقال علي من يدلني على الشاهدين الكاذبين فلم يوقف لهما على خبر فخلى سبيل الرجل.

وهذا من أحسن الفراسة وأصدقها فإنه ولى الشاهدين من ذلك ما توليا وأمرهما أن يقطعا بأيديهما من قطعا يده بألسنتهما، ومن هنا قالوا: إنه يبدأ الشهود بالرجم إذا شهدوا بالزنا. [٢٣]

وهذا جرير بن عبد الله البجلي يجلس مع عمر في بيت ومعهما بعض الناس، فوجد عمر ريحًا فقال: عزمت على صاحب هذه الريح لما قام فتوضأ. فقال جرير: يا أمير المؤمنين أو يتوضأ القوم جميعًا فقال عمر: يرحمك الله نعم السيد كنت في الجاهلية ونعم السيد أنت في الإسلام. [٢٤]

وهذا الحسن بن علي رضي الله عنهما لما جيء إليه بابن ملجم –قاتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه- قال له: أريد أن أسارك

---

(٢١) الطبري ٤ / ٨٦ كما في العواصم من القواصم ١٢١.

(٢٢) مدارج السالكين ٢/٤٨٦ .

(٢٣)الطرق الحكمية لابن القيم ص ٩١.

(٢٤) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٥٣.

بكلمة فأبى الحسن وقال: تريد أن تعض أذني. فقال ابن ملجم: والله لو أمكنتني منها لأخذتها من صماخها.

قال أبو الوفاء بن عقيل: فانظر إلى حسن رأي هذا السيد الذي قد نزل به من المصيبة العاجلة ما يذهل الخلق وفطنته إلى هذا الحد، وإلى ذلك اللعين كيف لم يشغله حاله عن استزادة الجناية. (٢٥)

ومن فراسة أخيه الحسين رضي الله عنهما أن رجلاً ادعى عليه مالاً فقال الحسين: ليحلف على ما ادعاه ويأخذه فتهيأ الرجل لليمين، وقال: والله الذي لا إله إلا هو فقال الحسين: قل والله والله إن هذا الذي تدعيه عندي وفي قبلي ففعل الرجل ذلك وقام فاختلفت رجلاه وسقط ميتًا فقيل للحسين: لم فعلت ذلك أي؛ عدلت عن قوله والله الذي لا إله إلا هو إلى قوله: والله والله فقال: كرهت أن يثني على الله فيحلم عنه.(٢٦)

وهذا الشافعي العربي القرشي، يقول عنه الربيع: كنت أنا والمزني والبويطي عند الشافعي، فقال لي: أنت تموت في الحديث. وقال للمزني: هذا لو ناظره الشيطان قطعه وجدله. وقال للبويطي: أنت تموت في الحديد. فدخلت على البويطي أيام المحنة، فرأيته مقيداً مغلولاً. (٢٧)

وهذا ابن بطة العالم الحنبلي الثقة، يقول أحدهم: رأيت النبي × في المنام، فقلت: يا رسول الله قد اختلفت علي المذاهب، فقال: عليك بابن بطة، فأصبحت ولبست ثيابي، ثم أصعدت إلى عكبرا، فدخلت وابن بطة في المسجد، فلما رآني قال لي: صدق رسول الله × ، صدق رسول الله ×.(٢٨)

وهذا الإمام القدوة عبد الغني المقدسي، يقول عنه محمد أخو الياسميني: كنت يومًا عند الحافظ المقدسي، فقلت في نفسي: أشتهي لو أنه يعطيني ثوبه حتى أكفن فيه. فلما أردت القيام خلع ثوبه الذي يلي جسده وأعطانيه، وبقي

---

(٢٥) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٥٣.

(٢٦) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٥٣.

(٢٧) تاريخ الإسلام، جـ ٧ .

(٢٨) سير النبلاء ١٦/ ٥٣٠.

الثوب عندنا كل من مرض تركوه عليه فيعافى. (٢٩)

وهذا الجنيد يأتيه يومًا شابٌ نصرانيًا في صورة مسلم، فقال له: يا أبا القاسم ما معنى قول النبي ×: " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله "؟ فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه إليه، وقال: أسلم فقد آن لك أن تسلم: قال فأسلم الغلام. (٣٠)

أيها الإخوة الكرام أما لنا في سلفنا الصالح عبرة وعظة، أما سألنا أنفسنا لماذا هم على هذه الحال ونحن من الحال ما نرى؟!.

أيها الإخوة الكرام آن لنا أن نعود إلى ديننا وإلى تراثنا نستجدي منه العبرة والعظة، ونتعلم من سلفنا الصالح ونتخلق بأخلاقهم ونسير على دربهم لنلحق بهم ونعلو كما علو في الدنيا والآخرة إن شاء الله.

---

(٢٩) سير النبلاء ٤٦٦/٢١.

(٣٠) البداية والنهاية ١٢٢/١١، مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٤٨٥.

التواصل الفكري القويم بين الأنبياء والصالحين

إنَّ كثيرًا من مواقف الحياة تتشابه في مضمونها وتصرُّف دروبها، غير متأثرة بتغيُّر زمان أو تبدُّل مكان، ما دام الإنسان هو الإنسان بصفاته التي خلقها الله فيه، فالطُّغاة والمجرمون على مرِّ الزمان يتخذُون نفس الحيل والأساليب التي سبقهم إليها أقرانهم الذين رحلوا إلى مزبلة التاريخ، حتَّى إنَّ القرآن ليقف متعجبًا من تشابه أقوالهم وأفعالهم قائلاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة١١٨] وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات٥٢-٥٣] فهؤلاء وأولئك تشابهت قلوبهم وألسنتهم ومواقفهم مع الأنبياء والصالحين في العناد والكفر، كأنهم يوصون بعضهم بعضًا.

وعلى الطّرف المقابل في الخير ونشر دين الله نجد الأنبياء والصالحين تصرفوا في مواقف مغايرة بطريقة واحدة يكاد يجزم العقل أنها هِيَ هِيَ، ولكنَّ المتأمّل يعلم أنها من صفاء القلوب العامرة بالإيمان، والعقول المتزنة بميزان الإسلام، فهذا إبراهيم -عليه السّلام- يضع خطّة لقومه عُبَّاد الأصنام؛ ليقيم عليهم الحجّة فيذكر آلهتهم بسُوء في أحد المواقف، ثمَّ يكسرهم جميعًا إلا كبير أصنامهم في موقف آخر، فيسأل القوم عن ذلك قائلين: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء٥٩-٦٠] أي: يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها.

فأرادوا أن يلقّنُوه درسًا أمام النّاس ليكون لهم عبرة، وكان هذا هو عين مطلوب إبراهيم عليه السلام، قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء٦١] أي: في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد

لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه، فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء٦٢-٦٣] وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء٦٤] أي: فعادوا على أنفسهم بالملامَة فقالوا: إنّكم أنتم الظالمون، أي: في عبادتها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء٦٥] قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، أي: فأطرقوا ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء٦٥] أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِّ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِّ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء٦٦-٦٧].

والمقصود هنا هو اجتماع الناس كلّهم؛ ليكون أجدَى في الموعظة وإقامة الحجَّة، وهي ما يسمّيها علماء الإعلام اليوم الاتّصال الجمعي أو الجماهيري.

وعلى دربه وطريقته سار موسى -عليه السَّلام- متَّصلاً معه في محاولة جمع الناس والفرعون في وقت معلوم ومكان معلوم؛ ليقيم عليهم الحجَّة والبرهان فقال لفرعون وملئه: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه٥٩] وكان هذا يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم.

فكان من أمر موسى مع السحرة ما كان، ثم إيمانهم به والاستماتة في سبيل الدّين الحقّ، والإعراض عن فرعون وجنده، والاستهانة بعذابه، فكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يُظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس.

وعلى أثرهما سار الغلام صاحب الراهب والسَّاحر والتي روى قصتها

علينا التاريخ الإسلامي، فقد جاء في زمان بعد موسى هذا الغلام الصَّغير الذي أراد ملك بلاده أن يتخذه ساحرًا بعد ساحره الذي أوشك على الموت، فكان يذهب الغلام إلى السَّاحر؛ ليعلمه، وكان يمرُّ براهب وهو في طريقه فيتعلَّم منه الدّين الحقّ الذي يدعو إلى توحيد الله، فآثر الغلام دين الراهب على تمويهات السَّاحر، وأصبح الغلام يشفي المرضى بإذن الله، فكان فتنة في هذا البلد فأراد الملك أن يتخلَّص منه بكل السُبل فلم يستطع، وفي الأخير قال له الغلام: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهمًا من كنانتي ثم تقول: بسم الله رَبِّ الغلام؛ فإنَّك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السَّهم في كبد القوس، ثم رماه وقال: بسم الله رَبِّ الغلام فوقع السهم في صدغه فمات. فقال الناس: آمنَّا بربِّ الغلام آمنَّا بربِّ الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فحفر فيها الأخاديد وأضرمت فيها النّيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها.

وهي قصة أصحاب الأخدود التي قصَّها علينا القرآن الكريم.

والمقصود فيها أن الغلام هُدِيَ -بإذن الله- إلى طريقة إبراهيم وموسى -عليهما السَّلام- في جمع النَّاس في صعيد واحد؛ ليقيم عليهم جميعًا الحجَّة ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحي من حيَّ عن بيّنة.

وكان رسولنا × يتعايش مع الأنبياء، ويتواصل معهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ × قَالَ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ(٣١).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ × رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْ كَانَ

(٣١) رواه البخاري ٣٣٧٢، مسلم ١٥١، ابن ماجة ٤٠٢٦.

صَبَرَ لَقَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِ وَلَكِنْ قَالَ: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾(٣٢).

فكان × يعلّق على مواقف الأنبياء ويقصّها على الصّحابة ويتفاعل مع أقوالهم وأفعالهم، ويتأثّر بهم، بل يتّخذ من بعض مواقفهم منهاجًا له في الحياة ومن بعض أقوالهم مُعينًا له على ذكر الله؛ فعن عَبْدِ اللهِّ بنْ مِسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ- قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ × أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِّ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِّ فَقُلْتُ: وَاللهِّ لأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ × فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلْ اللهُّ وَرَسُولُهُ رَحِمَ اللهُّ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ(٣٣)

فاتخذ × من صبر موسى -عليه السَّلام- على إيذاء قومه له قدوةً ومثالاً يُحتَذَى.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: حَسْبُنَا اللهُّ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلام- حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ × حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُّ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(٣٤)

ففي هذا الدُّعاء يتمثّل بقول أبيه إبراهيم -عليه السَّلام- حين قلَّ الناصر، وتوارى عن الأعين المعين، فقال × حين اجتمعت عليه العرب: حَسْبُنَا اللهُّ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَرْوَانَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ كَعْبًا حَلَفَ لَهُ بِاللهِّ الَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِمُوسَى إِنَّا لَنَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ دَاوُدَ نَبِيَّ اللهِّ × كَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ قَالَ اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي جَعَلْتَهُ لِي عِصْمَةً وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ

---

(٣٢) رواه أحمد ٢٠٦١٥، مسلم ٢٣٨٠، أبو داود ٣٩٨٤.

(٣٣) رواه البخاري ٣١٥٠، مسلم ١٠٦٢.

(٣٤) رواه البخاري ٤٥٦٣.

الَّتِي جَعَلْتَ فِيهَا مَعَاشِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ نِقْمَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ قَالَ وَحَدَّثَنِي كَعْبٌ أَنَّ صُهَيْبًا حَدَّثَهُ أَنَّ مُحَمَّدًا × كَانَ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ صَلاتِهِ(٣٥)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ × سَجَدَ فِي (ص) وَقَالَ سَجَدَهَا دَاوُدُ تَوْبَةً وَنَسْجُدُهَا شُكْرًا(٣٦)

وفي بيعة العقبة، بايعه × سبعُون رجلاً وامرأتان. فاختار × من السّبعين اثنَي عشَرَ رجلاً، وسمَّاهم النّقباء اقتداء بموسى عليه السلام (٣٧)حين اختار من قومه اثنتي عشرة سبطًا، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف١٦٠] لتستقي منها كل قبيلة من القبائل الإثني عشر.

وفي اليوم الأغرِّ المشهود من فتحه أم القرى مكَّة أخذ × بعضادتي باب الكعبة، وقد لاذ النّاس بالبيت فقال: (الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ثم قال: (ماذا تظنُّون يا معشر قريش) قالوا: خيرًا، أخ كريم، ابن أخ كريم وقد قدرت؛ قال: (وأنا أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف٩٢]. فعَفَا عنهم كما عَفَا يوسف الصديق عن إخوته وقد آذوه ورموه في الجب، وكذا أوذي × من قومه أشد الإيذاء بل حاربوه ووقفوا في طريق دعوته.

وهذا أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يتواصل مع النبي × في حركاته وسكناته، فعن أَبُي مُوسَى الأَشْعَرِيُّ قال: جَلِسَ النبي × عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلاَّهُمَا فِي الْبِئْرِ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِّ × مَعَهُ فِي الْقُفِّ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ كَمَا

(٣٥) رواه النسائي ١٣٤٦.

(٣٦) رواه البخاري ١٠٦٩، أبو داود ١٤٠٩، النسائي ٩٥٧.

(٣٧) تفسير القرطبي على آية المائدة ١٢.

صَنَعَ النَّبِيُّ × وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ. (٣٨)

فهذه استجابة حسيّة يجدها الصّديق من نفسه في التُّواصل مع النبي × فيفعل كما يفعل!. فأدَّى به هذا التّواصل الحسّي إلى تواصل معنويّ فتكلم -رضي الله عنه- كما تكلّم ×. ففي صلح الحديبية، يصالح النّبي × قريشًا على أن يعود هذا العام إلى المدينة على أن يرجع العام المقبل معتمرًا مع أصحابه، ثم من جاءه من قريش مسلمًا ردَّه إليهم فقال الصحابة: سبحان الله كيف يُردّ إلى المشركين وقد جاءنا مسلمًا، ويأتي عمر إلى النبي × فيقول: "أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا قَالَ: بَلَى. قال: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ. قَالَ: بَلَى. قال: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي. قال: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ. قَالَ: بَلَى. فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ. قَالَ: لاَ. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ. قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا. قَالَ: بَلَى قال: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ. قَالَ: بَلَى قال: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا. قَالَ أبو بكر -ولم يسمع كلمة قالها × لعمر-: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ × وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ. قال: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ. قَالَ: بَلَى أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ. قال: لاَ قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ".

فهذا حبل التوصل بين الصديق والنبي × في الأفكار والمشاعر والمواقف يظهر جليًّا في وقت الملمَّات.

تعلم عمر -رضي الله عنه- من مثل هذه المواقف فانطلق في الحياة الإسلامية عبقريًا ألمعيًّا يفكّر ويقترح ويناقش بمنهج الإسلام وروح الإسلام ويتواصل مع الصّحابة ومع رسول الله × بل وتواصل مع ربِّه تباك وتعالى، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلاَثٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَآيَةُ الْحِجَابِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ × فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ

(٣٨) رواه البخاري ٣٦٧٤، مسلم ٢٤٠٣، الترمذي ٣٧١٠.

يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ. (٣٩)

وعَنْ عَبْدِ اللهِّ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ. فقال عُمَرُ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِّ. فَقَالَ عُمَرُ: نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِّ إِلَى قَدَرِ اللهِّ. ثم جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فَقَالَ إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ × يَقُولُ إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ قَالَ فَحَمِدَ اللهَّ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ.

فعُمَرُ لم يكن يعرف حديث رسول الله × ولكن حسّه وروحه في اتّصال دائم من الأنبياء والصَّالحين فيتخذ الأجْدَى والأنفع للمسلمين بقدر الله الموافق لحكم الأنبياء والصالحين.

وكان التّابعون يتواصلون فكريًّا وروحيًّا مع من قبلهم من الصحابة وكبار التابعين، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ فَاطِمَةَ قَالَتْ يَا أَنَسُ كَيْفَ طَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِّ × التُّرَابَ وَقَالَتْ: يَا أَبَتَاهْ مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهْ وَا أَبَتَاهْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ وَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ وَا أَبَتَاهْ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهْ.

قَالَ حَمَّادٌ: حِينَ حَدَّثَ ثَابِتٌ بَكَى. وقَالَ ثَابِتٌ: حِينَ حَدَّثَ أَنَسٌ بَكَى(٤٠)

فهؤلاء التّابعون يَرْوُون الحديث، ويبكُون واحدًا تِلْوَ الآخر، ونحن نرويه ودموعنا تفيض -وَاللهِ- على الخُدُود.

فنسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يجعلنا ممن تتشابه قلوبهم مع قلوب أنبيائهم وسلفهم، وأن يفهمنا عنهم إنَّه على كلِّ شيء قدير.

---

(٣٩) رواه البخاري ٤٠٢، مسلم ٢٣٩٩، الترمذي ٢٩٥٩.، ابن ماجة ١٠٠٩.

(٤٠) رواه البخاري ٤٤٦٢، النسائي ١٨٤٤، ابن ماجة ١٦٢٩، الدارمي ٨٧.

الكِتاب والسُّنّة أساسُ قانونِ الأمّة

"إنَّ الله -تعَالَى- أرسل رسوله محمَّدًا × هاديًا وبشيرًا ونذيرًا، وحاكمًا بين النّاس بما أنزله عليه؛ أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدِّين كله، ودعا الناس إلى طاعته فى جميع أمورهم، فى دينهم ودنياهم، وفى عبادتهم ومعاملتهم، وأنزل عليهم شريعة كاملة، لم تَسْمُ إليها شريعة من الشرائع قبلها، ولن يأتى أحد من بعده بخير منها ولا بمثلها؛ ذلك بأن الله خلق الخلق وهو أعلم بهم؛ وذلك بأن محمدًا خاتم النَّبيين، شرع الله هذه الشّريعة الكاملة للناس كافَّةً، وفى كل زمان ومكان بعموم بعثة الرسول الأمين، وبختم النّبوة والرّسالة به، فكانت الباقية على الدهر، ونسخت جميع الشرائع، ولم تكن خاصَّة بأمّة دون أمّة، ولا بعصر دون عصر، ولذلك كانت العبادات مُفصلة بجزئياتها؛ لأنَّ العبادة لا تتغيّر باختلاف الدّهور والعصور، وكان ما سواها من شئُون الفرد والمجتمع فى المعاملات المدنيّة، والمسائل السياسيّة، ونظام الحكومات، والقواعد القضائية، والعقوبات، وما إلى ذلك قواعد كليّة سامية، لم ينصّ على تفاصيل الفروع فيها، إلاَّ على القليل النّادر، فى الأمر الخطير، مما لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان.

فقام سلفنا الصالح، المسلمون الأوّلون بإبلاغ هذه الشريعة والعمل بها فى أنفسهم وفيما دخل من البلدان فى سلطانهم، فنفذوا أحكامها على الناس كافّة، وفى جميع الأحوال، واجتهدوا فى تطبيق قواعدها على الوقائع والحوادث، واستنبطوا منها الفروع الدقيقة، والقواعد الأصولية والفقهية، بما آتاهم الله من بسطة فى العلم، وإخلاص فى الدين، حتى تركوا ثروة تشريعية لا نجد لها مثيلاً فى شرائع الأمم، وحتى كان من بعدهم عالة عليهم.

ولم يكن الفقهاء والحكام والقضاة فى العصور الأولى مقلّدين ولا جامدين، بل كانوا سادة مجتهدين، ثم فشا التّقليد بين أكثر العلماء إلا أفرادًا كانوا مصابيح الهدى فى كلّ جيل، ومع ذلك فقد كان المقلِّدون من العلماء يحسنون التطبيق والاستنباط فى تقليدهم.

وكان الملوك والأمراء والقواد والزعماء علماء بدينهم متمسكين به، إلى أن جاء عصر ضعف المسلمين، بضعف العلماء واستبداد الأمراء الجاهلين، فتتابع الناس فى التقليد، واشتد تعصبهم لأقوال الفقهاء المتأخرين، فى فروع ليست منصوصة فى الكتاب والسُّنة، ولعلّ كثيرًا منها مما استنبطه العلماء

بُنى على عُرْفٍ معيّن، أو لظروف يجب على العالِم مراعاتها عند الاجتهاد، بل لعلّ بعضها مِمَّا أخطأ فيه قائله، بأنه ليس بمعصوم.

وكثر الحرج واشتدَّ الضيق والأمر ظلمات بعضها فوق بعض، والعلماء -أو أكثرهم- يزدادون جمودًا وعصبيّة، والزمن يجرى إلى تطوُّر سريع، يقعد بهم تقليدهم عن مسايرته، فضلاً عن سبقه.

ثم دخلت علينا فى بلادنا هذه القوانين الغربيَّة المترجمة نقلت نقلاً حرفيًّا عن أمم لا صلة بها من دين أو عادة أو عرف، فدخلت لتشوه عقائدنا وتمسخ من عاداتنا وتلبسنا قشورًا زائفة تسمَّى المدنيَّة.

إننا جميعًا مسلمون، نحرص على ديننا، ونزعم أننا لا نبغى به بدلاً، ولكننا نُخطئ فهم الدّين، ونظن أنه لايتجاوز ما يُقام فينا من شعائر العبادة، وما يهتف به الوعاظ والخطباء من الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ويُخيل إلى كثير منا أنه لا شأن للدين بالمعاملات المدنية، والحقوق الاجتماعية، والعقوبات والتعزير، ولا صلة له بشئون الحرب، ولا بالسياسة الداخلية والخارجية، كلاَّ إنَّ الإسلام ليس على ما يظنّون، الإسلام دين وسياسة، وتشريع وحكم وسلطان، وهو لا يرضى من متبعيه إلا أن يأخذوه كلّه ويخضعوا لجميع أحكامه فمن أبى من الرضا ببعض أحكامه فقد أباه كله، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب٣٦](٤١).

"فمعرفة الحق المنزل من عند الله لابُدَّ أن يكون لها مقتضى واقعي في حياة البشر، فهى ليست معرفة تختزن فى الذهن، إنما ينبغي أن تتحول إلى سلوك واقعي.

وأول مجال لتطبيق هذه الحقيقة، وأبرز صورة لها، هى تحكيم شريعة الله والتقيُّد فى أمور الحياة كلها بمنهج الله".(٤٢)

---

(٤١) حكم الجاهلية للشيخ أحمد شاكر بتصرف.

(٤٢) ركائز الإيمان للشيخ محمد قطب.

"قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور ٥١] وقال أيضًا: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء٦٥] هذه آيات الله وأوامره قد سمعناها كثيرًا، فيها عبرة وعظة لنا لو تأملناها وفكرنا فى حالنا من طاعتها أو عصيانها وفيما يجب علينا حيالها، ونحن نحكم بقوانين لا تَمُتّ إلى الإسلام بصلة، بل هي تُنافيه في كثير من أحكامها وتناقضه، بل لا أكون مغاليًا إذا صرحت أنها إلى النصرانيَّة الحاضرة أقرب منها إلى الإسلام، ذلك أنها تُرجمت ونُقلت كما هي عن قوانين وثنيّة، عُدلت ثم وضُعت لأمم تنتسب إلى المسيحيّة، فكانت -وإن لم توضع عندهم وضعا دينيًّا- أقرب إلى عقائدهم وعادتهم وعرفهم، وأبعد عنّا في كل هذا، وقد ضربت علينا هذه القوانين في عصر كان كلّه ظُلمات، وكانت الأمَّة لا تملك لنفسها شيء، وكان علماؤها مستضعفين جامدين.

هذة القوانين كادت تصبغ النفوس كلها بصبغة غير إسلاميَّة، وقد دخلت قواعدها على النُّفوس فأشربتها وحتى كادت تفتنها عن دينها وصارت القواعد الإسلاميَّة في كثير من الأمور منكرة مستنكرة وحتَّى صار الدّاعي إلى وضع التّشريع على الأساس الإسلاميّ يجبن ويضعف، أو يخجل فينكمش مما يلاقي من هُزُءٍ وسخريّة! ذلك أنه يدعوهم -في نظرهم- إلى الرجوع القهقرى أربعة عشر قرنًا، إلى تشريع يزعمون أنه وضع لأمّة بدائيَّة جاهلة!

إني أرى أن هذه القوانين الأجنبيّة إليها يرجع أكثر ما نشكو من علل، في أخلاقنا، وفي معاملتنا، وفي ديننا، وفي ثقافتنا، وفى رجولتنا إلى غير ذلك.

إنَّ القوانين إذا حكمت بها أمّة السنين الطوال تغلغلت فى القلوب، ونكتت فيها آثارًا سوداء أو بيضاء، وصبغت بها الروح، ومرنت عليها النفس، وهذه القوانين الأجنبية أثرت أسوأ الأثر فى نفوس الأمة، وصبغتها صبغة إلحاديّة ماديّة بحتة، كالتي ترتكس فيها أوروبَّا وأمريكا ونزعت من القلوب خشية الله والخوف منه، وكان المسلم إذا حكم الحاكم أو القاضى، علم أنَّ

دينه يأمره فى دخيلة نفسه أن يكون مسئولاً عند الناس، وعلم أنه إن عصى ما قضى به قاضيه، كان عاصيًا لربه، حتى لو أيقن أن القاضى مخطىء فى قضائه، وكان المقضى له مأمورًا من قبل دينه أن لا يأخذ ما قضى له به إن كان يعلم أنه غير حقه، كما قال رسول الله S: **إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلا يَأْخُذْهَا**(٤٣).

هذه تربية الشريعة للأمة، فانظروا تربية القوانين المادية الأجنبية، لم يحترمها المسلمون فى عقيدتهم ودينهم، وإنما رهبوها وخافوا آثارها الظاهرة، ولم يعتقدوا وجوب طاعتها فى أنفسهم فكان ما نرى من اللدد فى الخصومة، والإسراف فى التقاضى واتباع المطامع والتغالى فى إطالة الإجراءات والتقصى بالحيل القضائية عن تنفيذ الأحكام، وعمَّ هذا كله دور القضاء، شرعيَّة وغيرها، ذلك أن الناس مردت نفوسهم على الباطل، فترى إباحيَّة سافرة فاجرة، عصفت بالأخلاق السامية، والتقاليد النَّبيلة، حتى كادت توردنا موارد الهلكة.

إن وجود الدولة في أيدي الشيوعين ثم العلمانين من أمتنا مكنهم من أن يستأثروا بالتشريع والإفتاء، ويحيدوا بالأمة ويعدلوا بها عن سواء الصراط، ذلك أنهم أفهموا وعلموا أن مسائل التشريع ليست من الدين، وظنوا أن الدين الإسلامى كغيره من الأديان، وأن تعرض العلماء والفقهاء لهذه المسائل تعرض لِمَا لا يعنيهم، وعصبية للاحتفاظ بسلطانهم، شبهوهم بالقسس فى أوربا وأمريكا، وغلبت عليهم مبادىء الثورة الفرنسية فى محاربة الكنيسة فاندفعوا فى عصبيتهم ضد شريعتهم ودينهم، وأبوا أن يسمعوا قولاً لقائل، أو نصحًا لناصح، وذهبوا يضعون القوانين للمسلمين على غرار القوانين التى وضعت لغيرهم، بأنها توافق مبادىء التشريع الحديث!

فذهبوا يلعبون بدينهم، فيما عرفوا وما يعرفون فأحلّوا وحرمّوا، وأنكروا وأقروا واضطربوا وتردّدوا، وكثير منهم يؤمن بالإسلام، ويحرض على التمسُّك به ولكنه أخطأ الطريق، بما أُشرب فى قلبه من مبادىء التشريع

---

(٤٣) (صحيح): البخاري ٢٦٨٠مسلم ١٧١٣، أبو داود ٣٥٨٣، النسائي ٥٤٠١، ابن ماجة ٢٣١٧.

الحديث، واندفعت العامّة والدّهماء وراءهم، يقلدون سادتهم وكبراءهم، ويتبعون خطواتهم، ومرج أمر الناس واضطربوا حتى إنهم ليحاولون علاج أمراضهم النفسية والاجتماعية بمبادىء التشريع الحديث، وبين أيديهم كتاب الله: ﴿ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس٥٧] ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت٤٤] ولكن قومنا اكتفوا من القرآن بالتغنّى به فى المآتم والمواسم، وتركوا تدبر معانيه واتباع هديه، واتخذوا هذا القرآن مهجورًا!

وكان من أثر مبادىء القانون الوضعى أن تعجز الأمة عن تربية ناشئتها على قواعد الإسلام، وأن تحاول جعل تعليم الدين إجباريًّا فى مدارسها فلا تصل إليه، وأن توجد فى البلد مدارس تربى أبناء المسلمين وتعلمهم غير دينهم، وغير لغتهم، فتسلخهم من الأمة، ثم يكونون حربًا عليها فى عقائدها وآدابها، وأن يكون ذلك عن رضا المستضعفين من آبائهم؛ وأن يأبى مديرو هذه المدارس أن يسمعوا لأمر وزارة التربية والتعليم، إذ أمرتهم بتعليم الإسلام لأبناء المسلمين، بما يشعرون فى أنفسهم من كبر وغرور، وبما يتوهمون فينا من ضعف ولين، وبما يظنون من حمايتهم بمبادىء القانون الوضعى.

إن فرنسا هى حامية النصرانيّة فى الشرق وداعية الإلحاد فى الغرب، والتى قامت ثورتها الكبرى على عداء الدين حين رأى رجلها العظيم المارشال بيتان(٤٤) عواقب ما جنى الانحلال على أمّته لم يتردد فى جعل تعليم الدين إجباريًّا فى كل المدارس ولم يفكر فى مبادىء القانون الوضعى.

وكان من أثر التربية المدنية المادية والغلو فى تقليد أوربا وأمريكا وترسم خطاها أن ظن ضعاف الإيمان أن التعليم الجامعى لا يكون صحيحًا إلا بمحاربة الدين أو بالانسلاخ من الدين؛ فذهب الذين تولوا كبره منهم يذيعون هذا النغم ويضربون على هذا الوتر يستهوون العقول الناشئة،

---

(٤٤) تقلد منصب رئيس الدولة في فيشي، وصار مجرد رئيسًا شكليًا للدولة، بعد هزيمة فرنسا سنة ١٩٤٠م.

ويستميلون القلوب الغضة، يريدون أن يخدعوا الشباب، والشباب سياج الأمة والدين.

إن هذه القوانين الأجنبية كادت تقضى على ما بقى فى أمتنا من دين وخلق، فأُبيحت الأعراض، وسُفكت الدماء، فلم تثْـهَ فاسقًا، ولم تزجر مجرمًا، حتى اكتظت السجون، وصارت مدارس لإخراج زعماء المجرمين، ونزعت من الناس الغيرة والرجولة، وامتلأت البلاد بالمراقص والمواخير، وشاع الاختلاط بين الرجال والنساء فى الجامعات وغيرها من المحافل والمجامع، حتى لا مزدجر، وصرنا نرى ما نرى، ونقرأ ما نقرأ فى الصحف والمجلات والكتب بما يسرت من سبل الشهوات، وبما حمت من الإباحية السافرة المستهترة، وبما نزعت من القلوب الإيمان، حتى صار المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، ومن عجب أن القائمين على مبادئ القانون الوضعى، والدَّابِّين عنها، لاتكاد تجد لهم اجتهادًا مستقلاً، أو رأيًا خاصًّا، إلا فى القليل النّادر، إنما همهم الاحتجاج بآراء الأوربيين، من مختلف الشعوب والأمم، صغرت أو كبرت جلت أو حقرت، ثم يملؤون ماضغيهم بها فخرًا! فكأننا أبينا أن نُقلد أئمة المسلمين؛ لنتخذ من دونهم أئمة آخرين!. " (٤٥)

"إنه لا يكفى أن نعبد الله داخل المسجد، بإقامة الشعائر التعبدية هناك، إذا كنا نخرج من المسجد فتكون لنا وجهة أخرى غير الله، ومصدر آخر نتلقى منه أفكارنا ومعتقداتنا وسلوكنا وأحكام حلالنا وحرامنا غير الله.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران١٩] والإسلام هو إسلام الوجه لله، أي: التوجه الكامل إلى الله، والخضوع الكامل لأوامر الله. التوجه الكامل لله فى الاعتقاد، فلا يعتقد أن هناك من يخلق أو يرزق أو يضر أو ينفع أو يحيى أو يميت إلا الله. والتوجه الكامل فى شعائر التعبد، فلا يصلى إلا لله، ولا يصوم إلا لله، ولا يزكى إلا لله، ولا يحج إلا لله. والتوجه الكامل لله فى الدعاء، فلا يدعو إلا الله. والتوجه الكامل لله فى أصول الحكم، فلا يحكم إلا بما أنزل الله. والتوجه الكامل لله فى الأخلاق والسلوك، فلا يتخذ قيمًا

(٤٥)حكم الجاهلية للشيخ أحمد شاكر بتصرف.

أخلاقية ولا قواعد سلوكية إلا ما أمر به الله.

هذا هو الإسلام الحقيقى، وهذا هو المدلول الحقيقى لشهادة أن لا إله إلا الله."(٤٦)

(٤٦) ركائز الإيمان للشيخ محمد قطب.

الشهرة وحب الظهور يقسمان الظهور

إن الإسلام بطبيعته المعتدلة يريد لأفراده أن يكونوا صالحين متوازنين لا يغترون بالدنيا أو تتعلق بها قلوبهم، فما مد أحدٌ عينيه إلى متاعها إلا واشرأبت نفسه وقارب الفتنة أو حام حول حماها، والسعيد من جعلها مطيةً للآخرة فصارت له دار ممر لا دار مقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [١٣١طـه]، ومن الاغترار بالدنيا السعي خلف الشهرة وبريقها، فكثير من الناس تتوق نفسه إلى أن يُشار إليه بالبنان أو أن يكون هو حديث المجالس أو أن يُسمع قوله أو يُكتب، لذا قد يسعى بعضهم بكل سبيل إلى تحقيق ذلك ولو على حساب مخالفة الدين والأخلاق، إذ من خصائص الشهرة أنها تؤز المرء إلى المغامرة أزًّا، ويدعى إلى تبرير كل وسيلة موصلة إليها دعّا، وهنا مكمن الخطر ومحمل الشوك الذي لا ينتقش.

لذا؛ حذر الشرع المطهر من حب الشهرة والظهور الداعي النفوس المريضة إلى تعلق القلب بتأسيس بنيان السمعة على شفا جرفٍ هار أو الإعداد لرفع الظمأ من سراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

فقال تعالى معلمًا نبيه ×: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام١٦٢] "أي أن كل أعمالي ومقاصدي محصورة في طاعة اللّه ورضوانه، وعلى المسلم أن يكون قصده وعمله وكل ما يقدمه من عمل هو وجه اللّه تعالى، سواء في أثناء حياته، أو ما يعقبه من عمل صالح بعد مماته، هو للّه، وإلى اللّه، وفي سبيل اللّه، ولطاعة اللّه تعالى. فإذا كان لله لم يَبقَ فيه نصيب لغير الله"(٤٧).

لذا؛ حذر × من سوء الأخلاق التي يكون عملها وسعيها وقولها لغير

---

(٤٧) التفسير المنير، وهبة الزحيلي بتصرف.

الله، فقال ×: إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ(٤٨).

فهؤلاء الثلاثة وعملهم الجليل سواء كان الشهادة أو تعليم العلم أو الإنفاق في سبيل الله يُعد من أعظم الأعمال في ميزان الإسلام ولكنهم أحبطوا ثواب عملهم بسبب طلب الشهرة بين الناس وحب الظهور الذي يقسم الظهور، فكانوا أول من تُسَعَّرُ بهم جهنم، فهم حطبها الأول لأنهم أرادوا أن يكونوا أول الناس وعلى رأسهم، فعاقبهم الله بضد قصدهم، والجزاء من جنس العمل، وما ربك بظلام للعبيد.

فالبحث عن الشهرة خلل في عقيدة التوحيد، وانقلاب في مفاهيم الغاية البشرية في الوجود، ونكسة في ترتيب الاهتمامات، فهو الصورة التطبيقية للرياء المحبط للأعمال في ميزان الشريعة.

وإذا كان قول النبي ×: "مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ" يعني به لباس الشهرة المادي المصنوع من القماش، فإن غيره المسبب للشهرة داخل فيه أيضًا كالسيارة مثلاً، فعن شهر بن حوشب قال: من ركب مشهورًا من الدواب ولبس مشهورًا من الثياب أعرض الله عنه وإن كان كريمًا(٤٩).

---

(٤٨) رواه مسلم ١٩٠٥، الترمذي ٢٣٨٢، النسائي ٣١٣٧.

(٤٩) سير الذهبي ٤/٣٧٥.

كما أن اللباس المعنوي للشهرة يمكن أن يشمله الحديث من باب أولى، ومن أي نوع كان سواء لباس التقوى، أو لباس العلم أو لباس الزهد أو لباس الورع، وأي لباس معنوي يتدثر به الإنسان بين الناس يسبب له الشهرة وهو يقصدها ويتعمد أن يراه الناس بها، فقد قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: كُلّ شَيْء صَيَّرَ صَاحِبه شُهْرَة فَحَقّه أَنْ يُجْتَنَب(١).

أما من اشتهر بالعلم والزهد والورع ونيته صالحة وعمله خالصًا لوجه الله فإنه خارج عن هذه الدائرة ولكن الواجب عليه أن يتفقد حال قلبه بين الفينة والأخرى.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يفرون من الشهرة وعدم الإخلاص لله في الأقوال والأفعال كما تفر الفريسة من الأسد، فهذا بُريدة بن الحصيب يقول: شَهِدْتُ خَيْبَرَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ صَعِدَ الثُّلْمَةَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى رُئِيَ مَكَانِي، وَعَلَيَّ ثَوْبٌ أَحْمَرُ، فَمَا أَعْلَمُ أَنِّي رَكِبْتُ فِي الإِسْلاَمِ ذَنْباً أَعْظَمَ عَلَيَّ مِنْهُ - أَيْ: الشُّهْرَةَ. (٢)

وهذا أبو عبيدة بن الجراح لما ذهب مددًا إلى عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل قال عمرو لأبي عبيدة والنفر الذين معه: أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله × أستمده بكم، فقال المهاجرون بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فقال عمرو إنما أنتم مدد أُمددته، فما كان من أبي عبيدة في هذا الموقف إلا أن أخلاص لله وترك الشهرة ورأه ظهريًا وقال: والله يا عمرو إنك إن عصيتني لأطيعنَّك وسلم إليه الإمارة. (٣) (٣)

وهذا خالد بن الوليد عندما أمره عمر بن الخطاب الخليفة أن يترك قيادة الجيش لأبي عبيدة بن الجراح، قال: سمعًا وطاعة لأمير المؤمنين وهذا موقف والله يُحسد عليه ولو تعرَّض له أحد القواد في هذا العصر وبشهرة سيف الله المسلول لما ترك قيادة الجيش ولما ترك هذه الشهرة بل انقلب

---

(١) كما في عون المعبود ١٧١/٩.

(٢) سير الذهبي ٤٧٠/٢.

(٣) البداية والنهاية ٢٧٢/٤.

على أميره وحاربه، ولكنه أبو سليمان؛ الإخلاص لله ولدينه والفرار من الشهرة وحب الظهور.

ومن العجب أن يحج مع النبي × ما يربو على مئة ألف صحابي فلم يقدر ابن حجر العسقلاني على قوة حفظه وسعة اطلاعه، ومهارة بحثه أن يجمع لنا في كتابه الإصابة أكثر من ثمانية آلاف صحابي فأين الباقون ! . إنهم على منهاج قوله ×: إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ[١]

ولو كانت الشهرة منقبة تتشوق لها النفوس الكريمة لأكرم الله بها سادة الدنيا من الأنبياء والمرسلين الذين بعث منهم ما يزيد على ثلاثمائة رسول، وأكثر من مائة ألف نبي، ورغم ذلك لم يحفظ لنا القرآن سوى أسماء خمسة وعشرين رسولاً لا غير.

وقد حذر سلفنا الصالح من حب الظهور والشهرة بين الناس لمن يسعى إليها ويجعلها هدفه، وتضافرت أقوالهم المحذرة من هذا الخلق الذميم، فهذا سفيان الثوري يقول: "إياك والشهرة؛ فما أتيت أحدًا إلا وقد نهى عن الشهرة.[٢]وقال إبراهيم بن أدهم: "ما صدق اللهَ عبدٌ أحب الشهرة".[٣] وقَالَ أَيُّوْبُ السختياني: مَا صَدَقَ عَبْدٌ قَطُّ، فَأَحَبَّ الشُّهرَةَ. [٤] وقال بشر بن الحارث: مَا اتَّقَى اللهَ مَنْ أَحَبَّ الشُّهْرَةَ.[٥] وقال أيضا: إذا عُرفت في موضعٍ فاهرب منه، وإذا رأيت الرجل إذا اجتمعوا إليه في موضعٍ لزمه، واشتهى ذلك فهو يحب الشهرة. [٦] وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: الخَيْرُ كُلُّهُ أَنْ تُزْوَى عَنْكَ الدُّنْيَا، وَيُمَنَّ عَلَيْكَ بِالقُنُوْعِ، وَتُصْرَفَ عَنْكَ وُجُوْهُ النَّاس.

---

(١) رواه مسلم ٢٩٦٥.

(٢) سير الذهبي ٢٦٠/٧.

(٣) المنتظم ٦١/٣.

(٤) سير الذهبي ٢٠/٦.

(٥) سير الذهبي ٤٧٦/١٠.

(٦) تاريخ دمشق ٢٠٦/١٠.

(١)وجاء في ميراث صوفية السلوك والاعتدال قول أبي حمزة البغدادي الصوفي: عَلاَمَةُ الصُّوْفِيِّ الصَّادِقِ أنْ يَفْتَقِرَ بَعْدَ الغِنَى، وَيَذِلَّ بَعْدَ العِزِّ، وَيَخْفَى بَعْدَ الشُّهْرَةِ، وَعَلاَمَةُ الصُّوْفِيِّ الكَاذِبِ أنْ يَسْتَغْنِي بَعْدَ الفَقْرِ، وَيَعِزَّ بَعْدَ الذُّلِّ، وَيَشْتَهِرَ بَعْدَ الخَفَاءِ. (٢)وقال أبو بكر بن عياش: "أدنى نفع السكوت السلامة، وكفى بها عافية، وأدنى ضرر المنطق الشهرة، وكفى بها بلية". (٣)

كما تضافرت أفعالهم في البعد عن الشهرة رغبة في ثواب الله عز وجل وإخلاصًا له، فعن صفوان بن عمر، قال: كان خالد بن معدان إذا عظمت حلقته (أي كثر تلاميذه في حلقة التدريس) قام فانصرف، قيل لصفوان: ولِم كان يقوم؟ قال: كان يكره الشهرة.(٤)

قال الذهبي معلقًا: ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، فإن أعجبه الصمت فلينطق، ولا يفتر عن محاسبة نفسه، فإنها تحب الظهور والثناء(٥)

وقال ثابت البناني: قال لي محمد بن سيرين: لم يكن يمنعني من مجالستكم إلا خوف الشهرة.(٦) وقَالَ مَعْمَرٌ: كَانَ فِي قَمِيْصِ أَيُّوْبَ بَعْضُ التَّدْيِيلِ، فَقِيْلَ لَهُ، فَقَالَ: الشُّهرَةُ اليَوْمَ فِي التَّشمِيْرِ. (٧)وقال إمام أهل السُنَّة أحمد بن حنبل: أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ فِي شِعْبٍ بِمَكَّةَ حَتَّى لاَ أُعرَفَ، قَدْ بُلِيتُ بِالشُّهرة، إِنِّي أَتَمَنَّى المَوْتَ صَبَاحًا وَمساءً. (٨) وقال سفيان الثوري :

---

(١) سير الذهبي ٢١٦/١١.

(٢) سير الذهبي ١٦٦/١٣.

(٣) سير الذهبي ٣٠٤/٨.

(٤) المنتظم ٣٩٥/٢.

(٥)سير الذهبي ٤٩٤/٤.

(٦) تاريخ دمشق ٢٢٨/٥٣.

(٧) سير الذهبي ٢٢/٦.

(٨) سير الذهبي ٢١٦/١١.

"خرجت حاجًّا أنا وشيبان الراعي مشاة، فلما صرنا ببعض الطريق إذا نحن بأسدٍ قد عارضنا فصاح به شيبان فبصبص وضرب بذنبه مثل الكلب؛ فأخذ شيبان بأذنه فعركها، فقلت: ما هذه الشهرة؟ قال: وأي شهرةٍ ترى يا ثوري؟ لولا كراهية الشهرة ما حملت زادي إلى مكة إلا على ظهره".[١] وهذا القاضي، أبو العباس العُقيلي، الجيّاني، يقول عنه ابن السمعاني: فقيه، مُفتٍ، زاهد. يعرف المذهب والفرائض. اعتزل عن الناس، واختار الخمول، وترك الشهرة، وكان كثير الذّكر. دخلت عليه، فرأيته على طريقة السّلف من خشونة العيش، وترك التكلّف[٢]

هكذا مضى السلف الصالح على هذا المنهاج، وكان هذا دينهم وديدنهم، فأين هذا من أقوام غلبهم حب الشهرة وظنوا أن التفاضل بكثرة المعلومات وكثرة المحفوظات وبالثناء وبانتشار الذكر حتى سجل التاريخ عليهم أيضًا عارًا وشنارًا، فهذا الخطيب البغدادي عندما صنف كتابه تاريخ بغداد وسمعت به الدنيا، كان هناك رجلٌ يسمى ابن القفطي من كبراء فقهاء الحنابلة فلما سمع بالكتاب، قال هل ذكرني الخطيب في كتابه في الثقات أم في الضعفاء؟ قالوا والله ما ذكرك لا فى الثقات وفى الضعفاء. قال ليته ذكرنى ولو فى الكذابين! ليته ذكرني ولو في الكذابين!.[٣]

وهذا أحمد بن عليّ بن أحمد. أبو العباس، البردانيّ، الضرير. قدم بغداد، وحفظ القرآن، وقرأ بالروايات، ورحل، فقرأ بالعشرة على ابن الباقلاّني، وبرع في التّجويد، وحفظ الحروف. وكان يقرأ في التراويح بالشّوادّ رغبةً في الشّهرة.[٤]

هكذا يشل حب الشهرة حركة المجتمع الإيجابية ليحولها إلى شكليات ومظاهر، ومسرحيات يخادع بها بعضهم بعضا، فالشهرة حين تصير غاية في ذاتها فمعنى ذلك تفشي الكذب والنفاق والخديعة والتصنع، وغياب القيم

---

(١) سير الذهبي ٢٦١/٨.

(٢) تاريخ الذهبي ١٢/٤.

(٣) سير الذهبي ٣٨١/١٨.

(٤) سير الذهبي ٥٤/١٠.

الحقيقية التي لا تنتج الإبهار، ومعرفة الناس الشهرة تعنى سقوط النماذج الحقيقة ليبرز مكانها البالونات الكاذبة والسراب المضلل، فليس كل مشهور ناجحًا أو ناجيًا عند الله تعالى، وليس كل مغمور فاشلاً أو متأخرًا. لذا؛ قال ابن خلدون: "قلما صادفت الشهرة والصيت موضعها في أحدٍ من طبقات الناس في أحد مجالاتهم على وجه العموم، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها، وقد تصادف موضعها وتكون طبقًا على صاحبها، وإنَّ أثر الناس في إشهار شخص ما يدخل الذهول والتعصب والوهم والتشيع للمشهور، بل يدخله التصنع والتقرب لأصحاب الشهرة بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، والنفوس مولعةٌ بحب الثناء، والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها فتختل الشهرة عن أسبابها الحقيقة فتكون غير مطابقة للمشتهر بها".(١).

والشهرة يجب ألا تكون هدفًا في ذاتها بل يمكن أن تكون نتيجة للأعمال الصالحة أحيانًا، فعلى من ابتلي بها الصبر والمجاهدة ومدافعتها قدر الإمكان دون الإخلال بوظيفته الصالحة في الحياة، قال المروذي: قال لي أحمد: قل لعبد الوهاب: أخمل ذكرك، فإني أنا قد بليت بالشهرة(٢).

فمن عمل صالحًا وعافاه الله وكان مغمورًا فليعش في جنة الدنيا وليبق حرًا طليقًا، ولا يدخل إلى أقفاص المراقبة البشرية، ففي جنة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وإذا رأيت مشهورًا فقل الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك وفضلنا على كثير من عباده تفضيلا.

فليست الشهرة تراد في ذاتها، قد تتفق للرجل فإذا صبر علي حقها فإنه لا حرج عليه، والخفاء كذلك لا يراد لذاته وإنما الذي يراد أن يراك الله حيث أمرك وأن يفقدك حيث نهاك، الذي يراد أن تكون لك خبيئة سر بينك وبين الله؛ تلج عليه من خلالها، وتنفعك أحوج ما تكون إليها عند طلوع الروح في لحظات الخواتيم، وتنفعك أحوج ما تكون إليها إذا حقت الحقائق وقامت القيامة وقرعت القارعة وزلزلت الزلزلة وحقت الحاقة وتطايرت صحف الأعمال ونودي الناس إلي ربهم أن هلموا إلي ربكم لفصل القضاء.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١/١٥٠.

(٢) سير الذهبي ١١/٢٢٦.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يحفظ علينا ديننا، وأن ينجينا من عذابه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وعن سفيان، قال: كانوا يكرهون الشهرتين: الثياب الجياد التي يشتهر فيها ويرفع الناس فيها أبصارهم، والثياب الرديئة التي يُحتقر فيها ويُستَذَل دينه إصلاح المال لابن أبي الدنيا، ١١٣.

دواءُ سيّدِ المرسلين لداءِ المترفين

إن من أخطر الأدواء التي تودي بحياة أمة من الأمم لا سيما الثرية منها؛ هو الترف، كما أنه سبب رئيس لسقوط كثير من الدول والشعوب؛ فهو الداءُ العضال، والمرض القتال، والمقتُ والوبال؛ الذي يقتل النخوة، ويقضي على البطولة، ويخمد الغيرة، ويفرز الوهن، ويكبت المروءة، ويضعف الهمة، ويفرز غثاءً كغثاء السيل، فإن استشرى في أمّة ذهب بعزها وأرثها كسلاً وخمولاً، وركونًا إلى الدنيا ومحبةً لها وحرصًا عليها فلا يرتجى منها نفعٌ ولا ينتظر منها دفاعٌ عن الحق، حتى إذا استغاث المستضعفون والمحرومون في الأرض، لم يجدوا لنُصرتهم ذا مروءة.

فحقوق الله تُنتهك، وحدوده تُتجاوز، وأوامره تُضيع، ويُطعن في رسول الله × قصصًا وروايات ونظمًا ونثرًا، ويُركن إلى الظلمة، ويُحارب الله وتُثقل الكواهل بالديون ويُؤكل بالدين ومن أعظم الأسباب لهذا كله هو الترف.

ولقد أخذ الترف بألباب وعقول كثير من المسلمين اليوم حتى صاروا عبيدًا له، وأصبحوا يرون أن تعاليم الإسلام وأحكامه تشكل عبئًا ثقيلا عليهم وحاجزًا منيعًا بينهم وبين التمتع بمباهج الدنيا وشهواتها.

لذا، يجب علينا أن ننظر إلى حياة سيد المرسلين × وهو يعالج الترف والمترفين بأقواله وأفعاله ليخرج بالأمة إلى بر النجاة في الدنيا والآخرة، فهو لا غيره القائد والمعلم والقدوة، والتأسي ببعض سننه في العيش والحياة فيه الخير والبركة.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ × مِنْ طَعَامٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ»(١)

وقال النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ: «لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ × وَمَا يَجِدُ مِنْ الدَّقَلِ-رديء التمر- مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ»(٢)

---

(١) رواه البخاري ٥٣٧٤، مسلم ٢٩٧٦، الترمذي ٢٣٥٨، ابن ماجة ٣٣٤٣.

(٢) رواه مسلم ٢٩٧٧، الترمذي ٢٣٧٢، ابن ماجة ٤١٤٦.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ ابْنَ أُخْتِهَا: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ × نَارٌ فَقُلْتُ يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ قَالَتْ الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ»(٣)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ × ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ قَالاَ الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا قُومُوا فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنْ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ مَرْحَبًا وَأَهْلاً فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ × أَيْنَ فُلاَنٌ قَالَتْ ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنْ الْمَاءِ إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ × وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ للهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي قَالَ فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ كُلُوا مِنْ هَذِهِ وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ × إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ × لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»(٤).

هذه كانت حياته × يشبع يومًا ويجوع أيامًا، وقد تخرج الصحابة في مدرسته × وعلى منهاجه وتحت لوائه، فهم حسنة من حسناته ×، فهذا العبقري الألمعي عمر بن الخطاب وقد انفتحت له زهرة الدنيا يقول: «لو شئت كنت أطيبكم طعامًا وألينكم لباسًا ولكني ولكني سمعت الله، جل ثناؤه، عير قوما بأمر فعلوه فقال: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها»(٥).

لما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، فقال: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد: لهم

---

(٣) رواه البخاري ٢٥٦٧، مسلم ٢٩٧٢، الترمذي ٢٤٧١، ابن ماجة ٤١٤٤.

(٤) رواه مسلم ٢٠٣٨، الترمذي ٢٣٦٩، ابن ماجة ٣١٨٠.

(٥) طبقات ابن سعد ٢٧٩/٣.

الجنة، فأزرفت عيناه، فقال: لئن كان حظنا من هذا الطعام، وذهبوا بالجنة، فقد بانوا بوانًا بعيدًا»[٦].

وقال جابر بن عبد اللهّ: «رأى عمر بن الخطّاب في يدي لحمًا معلَّقا، قال: «ما هذا يا جابر؟». قلت: اشتهيت لحمًا، فاشتريته. فقال عمر: «كلّما اشتهيت اشتريت، أما تخاف هذه الآية أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا»[٧].

«وكان حفص بن أبي العاص يحضر طعام عمر فكان لا يأكل، فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال: إن طعامك جشب غليظ وإني راجع إلى طعام لين قد صنع لي فأصيب منه، قال: أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها وآمر بدقيق فينخل في خرقة ثم آمر به فيخبز خبزًا رقاقًا وآمر بصاع من زبيب فيقذف في سعن ثم يصب عليه الماء فيصبح كأنه دم غزال؟ فقال: إني لأراك عالمًا بطيب العيش، فقال: أجل! والذي نفسي بيده لولا أن تنتقض حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم»[٨].

«وقالت حفصة بنت عمر لأبيها: يا أمير المؤمنين إنه قد أوسع الله الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير فلو طعمت طعامًا ألين من طعامك ولبست لباسًا ألين من لباسك، فقال: سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله × يلقى من شدة العيش؟ قال فما زال يذكرها حتى أبكاها، ثم قال: إني قد قلت لك إني والله لئن استطعت لأشاركنها في عيشهما الشديد لعلي ألقى معهما عيشهما الرخي»[٩].

ولقد كان سلفنا الصالح أبعد الناس عن هذا الترف وحياة المترفين، فقد وطنوا أنفسهم على عدم تحقيق كل ما تشتهيه مع قدرتهم على تحقيق مطلوبها، فقد قال رجل لابن عمر: «ألا أجيئك بجوارش، قال: وأي شيء هو؟ قال: شيء يهضم الطعام إذا أكلته، قال: ما شبعت منذ أربعة أشهر، وليس ذاك أني لا أقدر عليه، ولكن أدركت أقوامًا يجوعون أكثر مما

---

(٦) سبل الهدى والرشاد ٢٦٥/١١.

(٧) الآداب الشرعية ٣٤١/٣.

(٨) تاريخ دمشق ٤١٤/١٤.

(٩) طبقات ابن سعد ٢٧٧/٣.

يشبعون»[١٠]، «وسئل الحسن عن الرجل يبتاع الطعام ويبتاع اللحم، هل عليه في ذلك؟ فقال: إن عمر بن الخطاب قال: كفى سرفًا ألا تشتهي شيئًا إلا أكلته»[١١]

وكان من هديهم رضي الله عنهم أجمعين النظر إلى ملذات الحياة الدنيا وشهواتها على أساس أنها وسيلة زائلة تقرب إلى الدار الآخرة لا أنها غاية في ذاتها وهدف يطمح إلى تحقيقه والتشبث به، فقد قال عثمان بن عفان في آخر خطبة له: «إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، لا تبطركم الفانية، ولا تشغلكم عن الباقية، آثروا ما يبقى على ما يفنى فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله عز وجل»[١٢].

وكان من هديهم رضي الله عنهم أجمعين التوسط في الإنفاق على النفس والأهل؛ قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز: كيف وما يغنيك؟ قال: الحسنة بين السيئتين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان٦٧][١٣]، وقال الحسن: «إن من علامة المؤمن: أن لا يقصر به بيته، ولا يبخل ولا يبذر، ولا يسرف ولا يقتر»[١٤]، وقال سليمان الداراني: «لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله عن الآخرة»[١٥]، وقال مالك بن دينار: «بقدر ما تخزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك»[١٦]، وقال طاووس: «حلو الدنيا مر الآخرة، ومر الدنيا حلو

---

(١٠) الزهد للإمام أحمد، ١٨٩.

(١١) إصلاح المال لابن أبي الدنيا، ١٠٦

(١٢) ذم المال لابن أبي الدنيا، ٧٧.

(١٣) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ١٠٠

(١٤) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ١٠٠

(١٥) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ١٢٩

(١٦) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ٦٦

الآخرة»[١٧]، وكان الأسود يقول: «من كانت الدنيا أكبر همه، طال غدًا في القيامة غمه»[١٨]، ولله در سفيان الثوري حين قال: «إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي»[١٩]، وكان خالد بن صفوان يقول: «بت أفكر فكسبت البحر الأخضر بالذهب الأحمر، ثم نظرت فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وطمران»[٢٠]

والناظر لقصص القرآن يجد أن الأمم والأفراد الذين ينغمسون في الترف يكفرون نعم الله عز وجل وتكون عاقبتهم خسران الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل١١٢]، وقال عن قوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ ١٥-١٧].

وهذا قارون المترف حينما وجه له أهل الإيمان النصح بقولهم: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص٧٦- ٧٧].

---

(١٧)حلية الأولياء ١٢/٤

(١٨) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ١٣٢

(١٩) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ١٤٥

(٢٠) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ١٤٨

فبادر قائلاً: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾. فكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

وفي تاريخ الأمة من المترفين من عقبهم الله عز وجل وأنزلهم من البروج المشيدة إلى غياهب الفقر والحاجة، فهذه أم الوزير جعفر البرمكي دخلت على أناسٍ في عيد الأضحى وعليها ثياب رثّة تطلبُ جلد شاة فكان مما قالت: (لقد مَرَّ علي العيد فيما مضى وعلى رأسي أربعمائة جارية وأنا أزعم أن ابني عاقٌ فيَّ وقد أتيتكم يقنعني جلدُ شاتين، أجعل واحدًا منهما فراشًا لي وألتحف بالأخرى) (١).

وهذا المعتمد بن عباد أحد حكام الأندلس وصاحب الأعطيات والشعر هاجمه البربر ونهبوا قصره وأسروه فذهبوا به إلى طنجة بعد أن أفقروه ثم سجن بأغمات عامين وزيادة في قلّة وذلة فدخل عليه بناته يزرنه يوم عيد وكن يغزلن بالأجرة فرآهنَّ في أطمارٍ بالية بعد أن كان يخلط لهن المسك بالكافور ليتزلجن عليه ويعبثن به فقال:

فِيمَا مَضَى كُنْتَ بِالأَعْيَادِ ... فَسَاءَكَ العِيْدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُورَا
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الأَطْمَارِ جَائِعَةً ... يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيْرَا
بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً ... أَبْصَارُهُنَّ حَسِيْرَاتٍ مَكَاسِيْرَا
يَطَأْنَ فِي الطِّيْنِ وَالأَقْدَامُ حَافِيَةٌ ... كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكاً وَكَافُوْرَا(٢)

وإذا كان الإسلام يرفض الترف ويعده من الصفات المذمومة، فإن بعض الناس يفهم من هذا أن يتخلى عن جميع متع الدنيا ونعيمها، وأن يبقى فقيرًا، وليس هذا هو المقصود، بل المقصود هو الاقتصاد في الإنفاق وعدم تعلق القلب بهذه الملذات والركون إليها، فالاستمتاع بالمباح لا شيء فيه بشرط ألا يشغل عن الآخرة، وفي هذه الحال يكون متاع بلاغ وليس متاع غرور، والتنعم في حدوده مقبول بل مطلوب، والترف في غير مبالغة دواء لمتاعب

(١) سير الذهبي ٦٩/٩.

(٢) سير الذهبي ٦٣/١٩.

الحياة.

فمن أخذ الدنيا من وجوهها المباحة، وأدى واجباتها، وأمسك لنفسه الزائدَ على الواجب يتوسّع به في التمتع بشهوات الدنيا فلا عقاب عليه إلا أنه ينقص من درجته في الآخرة بقدر توسّعه في الدنيا.

فالله لم يأمرنا أن نتصدق بجميع أموالنا بل ننفق للآخرة ونستمتع بالمباح في الدنيا استمتاعًا لا يفسد الدين ولا يضر بالآخرة، فإن شغلتك الدنيا عن الله فالزهد فيها تركها، وإن لم تشغل عن الله بل كنت شاكرًا فيها فأنت في حال طيب.

وقد سئل الإمام أحمد: أيكون الإنسان ذا مال وهو زاهد؟ قال: نعم إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصانه، فأخرجوا الدنيا من قلوبكم وضعوها في أيديكم.

فالزهد ليس أن لا يكون عند الإنسان شيء لكن الزهد ألا يتعلق قلبه بهذا الشيء الذي هو عنده.

وقد كان × أزهد الناس وعنده تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام من الزهاد ومن المعدودين من كبار التجار، وكان الحسن بن علي من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحًا لهن، وكان عبد الله بن المبارك من الزاهدين بالرغم من المال الكثير عنده.

فالزهد الحقيقي أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك، قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد٢٣].

وإذا كان حديثنا في المقام الأول لأفراد المسلمين، فإنه يكون أيضًا للدول والحكومات بأن تحافظ على شعبها وأن تعمل على سد الذرائع التي تؤول بالبلاد والعباد إلى الترف المذموم؛ الذي يجر إلى الذنوب والمعاصي، ويورث دمارًا وهلاكًا، وهذا يتطلب منا جميعًا العودة الصادقة لكتاب الله ولسنة رسول الله × علمًا وعملاً واعتقادًا، وأن نبذل وسعنا في معاني التقدم والتحضر والتطور وفق منهج العبودية، بحيث نقيم حضارة على منهاج النبوة، فالنعمة لا تطغينا، والمصيبة لا تجعلنا نيأس ونقنط من رحمة الله وأن نواجه النعم والغنى بالشكر، والفقرَ بالصبر.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يقينا شر أنفسنا إنه نعم المولى ونعم النصير.

بَرَكَةُ البُكُورِ وقِلَّةُ الخُمُولِ

إن ثورة مصر في الخامس والعشرين من يناير، ثورة مباركة إذ عدها العلماء من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند السلطان الجائر، ولكن كان من الواجب عليها أن تكون ثورة على الأخلاق والسلوك أول ما تكون، لا ثورة على الحكام الظلمة فحسب، فالأخلاق المخالفة لمنهاج الإسلام، هي الظلم بعينه وهي التي أودت ببنيان المجتمع، وأهلكت قوائمه ودعائمه.

فكان الواجب على هذه الثورة أن تتمثل أخلاق النبي × لأنه هو لا غيره الحريص على أن تكون شخصية المسلم جامعة لكل خصال الخير، من الإيمان والعلم والشجاعة والصبر والمجاهدة والرحمة والحرص على كل ما ينفعها، مستعينة بالله تعالى، غير عاجزة ولا كسولة.

وعلى مستوى العالم الإسلامي يفخر المسلمون في الأرض قاطبة بالصحوة الإسلامية الشاملة في الوقت الذي يصحو فيه كثير منهم بعد الساعة العاشرة صباحًا وقد أضاعوا وقت السحر بالسمر، والبكور في الخدور!.

في حين أن نبيهم × كان حريصًا على جلب الخير كله لهم، كما كان حريصًا على إبعاد أي شر عنهم، لذا؛ كان أمره ونهيه هو المصلحة التامة، ومن المصلحة التي أمرنا بها ×؛ أن ننام باكرًا ونصحو باكرًا، ومن الشر الذي نهانا عنه السهر لوقت متأخر من الليل.

وإنه من دواعي الأسى والحسرة على المجتمع العربي المسلم أن نراه ساهرًا وسامرًا بالليل حتى إذا ما طلع الفجر نام حتى منتصف النهار، وهو في أمَسِّ الحاجة للعمل والإنتاج والجهد الجهيد من أجل بناء حضارته التي تنتظرها الدنيا، ولكنَّ الواضح أن الدنيا سوف تنتظر طويلا!.

ففي ظل الحياة المعاصرة التي تسير بنا وفق منهاج الغرب فقدنا هويتنا في الاستيقاظ والنوم، فهناك شرائح كبيرة من المجتمع ينامون في أعمالهم ومصالحهم فالموظف ينام في عمله، والطالب ينام في مدرسته، والسائق ينام على عجلة القيادة، ناهيك عن كثرة التثاؤب من شريحة أخرى كبيرة في المجتمع، والتي تصيب الملتزمين بسنة النبي × بالكآبة واليأس.

والعجيب أن نرى دول الغرب تنبهت لذلك فأصبحوا وقد جعلوا طريقة

الإسلام في هذه الجزئية منهجًا لهم وبخاصة ألمانيا وفرنسا وانجلترا حيث يبدءون الدوام في أعمالهم بجد ونشاط من الساعة السادسة صباحًا.

وجولدا مائير حينما سئلت متى سينتصر المسلمون علينا أجابت إذا رأيت المسلمين في صلاة الفجر كما هم في صلاة الجمعة فهذا يوم هزيمتنا وانتصارهم.

لذا وجب علينا أن نراجع أسلوب حياتنا ومعيشتنا أفرادًا وجماعات، أي لا بد من قرارات حاسمة للفرد في تغيير أسلوب حياته، فالمسلم الحق هو الذي يُكيف حياته ونظامه وفق تعاليم الإسلام بحيث لا يدع نشاطًا من أنشطة حياته إلا ويجعله سائرًا على منهج الله.

ولا بد للجماعة المتمثلة في الدول وحكوماتها أن توفر الثقافة اللازمة لهذا المنهاج الرباني، فدولة الإسلام الحق هي التي تصبغ حياة رعاياها كلها وفق منهاج القرآن والسنة، وتيسر لهم سلوك سبيل الإسلام بلا إفراط ولا تفريط.

ومن رحمة الله تبارك وتعالى بالبشر جميعًا أن جعل الليل للنوم والراحة والدعة والسكون، وجعل النهار للعمل والكد والسعي على الرزق، فهل من شاكر لله تعالى على نعمائه؟! وهل من حريص على تطبيق منهاج الله في هذا الكون؟! قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ القصص ٧٣، وقال أيضًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الروم٢٣، وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ غافر ٦١، وقال أيضًا: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الأنعام ٩٦، وقال أيضًا ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ الفرقان ٤٧، وقال أيضًا: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ النبأ٩

ـ ١١.

بعد هذا كله تجد كثيرًا من الناس لا يفهمون هذه الحقيقة ويتحدون السنن الكونية بالسهر ليلاً والنوم نهارًا، بل لا يهتدون بهدي نبيهم ×.

فقد كان من هديه × أن ينام بعد العشاء ليستطيع قيام الليل والنهوض مبكرًا لصلاة الفجر، فقد حدث أبو برزة الأسلمي أن رسول الله ×: «كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العشاء وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا»(١)

وكان من هديه أيضًا أنه إذا أراد إبرام أمر أو فعل شيء ذا بال كسفر أو حرب أو بعث السرايا فإنه يفعله من أول النهار، ودعا لأمته بالبركة في بكورها، فعن صخر بن وداعة قال: قال ×: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»(٢).

وقد نفذ الصحابة أمر حبيب قلوبهم × والذي كان حبه عندهم طاعة وامتثالاً فقد كان صخرٌ هذا صحابيًا جليلاً تاجرًا وكان على الهدي الذي أمر به × فكان يبعث تجارته من أوّل النّهار، فأثرى وكثر ماله.

فالبكور بركة وزيادة ونماء لخيري الدنيا والآخرة، والسهر شقاء وتعب وقلة في الدنيا والآخرة، تلك البركة التي لم نعد نجد لها أثرًا في حياتنا، وتناسينا الأخذ بأسبابها، والتي كانت سببًا في رفعة سلفنا الصالح وقيادتهم للعالم.

فها هو عمر رضي الله عنه يضرب الناس على السمر بعد العشاء ويقول مستنكرًا: أسُمَّرًا أول الليل ونوَّمًا آخره!؟ أريحوا كُتَّابكم(٣)، يعني؛ أريحوا الملائكة الذين يحصون أعمالكم ويكتبونها في صحائفكم.

وكان ابن عمر يقول: من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاة حتى يصبح. (٤)

---

(١) رواه البخاري ٥٤٧، مسلم ٦٤٧، أبو داود ٣٩٨، النسائي ٩٤٨، ابن ماجة ٦٧٤.

(٢) رواه أبو داود ٢٦٠٦، الترمذي ١٢١٢، ابن ماجة ٢٢٣٦، صحيح الترغيب والترهيب ١٦٩٣.ه

(٣) كما في فتح الباري على شرح حديث رقم ٥٩٩.

(٤) كما في تفسير القرطبي تفسير سورة المؤمنون آية ٦٧.

ومر عبد الله بن عمرو على رجل بعد صلاة الصبح وهو نائم فحركه برجله حتى استيقظ وقال له أما علمت أن الله يطلع هذه الساعة إلى خلقه فيدخل ثلة منهم الجنة برحمته. (٥)

قال ابن القيم: «ونوم الصبحة يمنع الرزق، لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها، وهو وقت قسمة الأرزاق، فنومه حرمان إلا لعارض أو ضرورة، وهو مضر جدًا بالبدن لإرخائه البدن، وإفساده للفضلات التي ينبغي تحليلها بالرياضة، فيحدث تكسرًا وعِيًّا وضعفًا. وإن كان قبل التبرز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشيء، فذلك الداء العضال المولّد لأنواع من الأدواء»(٦)

فالنائم إلى ما بعد صلاة الفجر يصبح خبيث النفس كسلان، ومن استيقظ ساعتها يصبح نشيطًا كما قال ×: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَّ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»(٧)

كما أن من قام في البكور وصلى الفجر فهو في ذمة الله، وكفى بها نعمة، قال ×: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهَّ»(٨) فأي فضل وأي خير أعظم من هذا الفضل.

بل تعدى الأمر إلى الآخرة، أي أمر الجنة والنار؛ فقد قال ×: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»(٩) يَعْنِي الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ، فهل بعد ذلك يريد أحدُ أن يسهر الليل وينام النهار، ويدخل النار مع الداخلين!

---

(٥) الحلية ٢٩٠/١

(٦) زاد المعاد ٢٢٢/٤.

(٧) رواه البخاري ١١٤٢، مسلم ٧٧٦، أبو داود ١٣٠٦، النسائي ١٦٠٧، ابن ماجة ١٣٢٩.

(٨) رواه مسلم ٦٧٥، الترمذي ٢٢٢.

(٩) رواه مسلم ٦٣٤، أبو داود ٤٢٧، النسائي ٤٧١، ابن ماجة ٦٧٤.

ولا ننسى في هذا المقام أن نذكر بالفوائد العلمية للاستيقاظ مبكرًا فالجو في ساعات الفجر الباكر يكون ممتلئًا بأعلى نسبة من غاز الأوزون الذي يتناقص تدريجيًا حتى يضمحل عند طلوع الشمس ويكون الكورتيزون في أعلى نسبة في الدم وهو المادة التي تزيد من فعالية الجسم حيث يعيد الدورة الدموية والتنفس إلى نشاطهما كما كانا قبل النوم، أي قبل تباطئهما، فغاز الأوزون الناتج عن تكاثف ثلاث ذرات من الأوكسجين في وقت البكور يعتبر من المطهرات، إذ يعقم الجو وما لامسه، ومن المعلوم أن إحدى الطرق المتبعة لتعقيم المياه في مصافيها هي استعمال غاز الأوزون، وأكثر ما يكون الجو الأرضي غنيًا بهذا الغاز هو وقت البكور وهو الساعة الأولى من الصباح والتي تسبق شروق الشمس وهو الأنفاس الأولى التي تطلقها رئتا الصبح الوليد، قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير١٨] فالله يقسم بالصبح وأنفاسه الأولى وفي آية أخرى ﴿وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر١-٢]، وهكذا فالبكور وقت مبارك للعمل والإبداع، وقد أثبت العلم أن هنالك طاقة عظيمة تهبط من السماء إلى الأرض وتدخل عبر نقرة الإنسان وهي المكان المقعر كالمرآة والتي تستقطب وتركز الضوء وتجمعه وهي متواجدة عند التقاء الرأس مع العنق في الخلف.

كما أن كثرة السهر وعدم أخذ القسط الكافي من النوم يؤدي إلى ظهور أعراض وأمراض أخرى منها: التعب والصداع والغثيان واحمرار العينين وانتفاخهما والتوتر العصبي والقلق وضعف الذاكرة والتركيز وسرعة الغضب والألم في العضلات وبعض المشكلات الجلدية كالبثور وغيرها.

والأمة اليوم لم تضيع البركة في وقت البكور فحسب، بل إن الزمن كقيمة مفقود فالمواعيد قابلة للتمدد بلا حدود، في حين أن رسالته × وتعاليمه وسنته كان من شأنها أن تجعل من المسلمين مالكين أقوياء لزمام العصر بلغته واختراعاته وأدواته وهو الجزاء الأوفى لكدحه × طوال ثلاث وعشرين عامًا أدى فيها الرسالة ونصح الأمة وكشف الغمة، ودعا لها ببركة البكور.

فللوقت إجمالا قيمة عظيمة لا تضاهيها أية قيمة أخرى في الإسلام حيث قال ×: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ

أَبْلاَهُ»[١٠] حيث ربط بين العمر (الوقت) من جهة وبين العمل من جهة أخرى كسمة من سمات الحياة الدنيا، والإنسان في تنافس خاسر أمام الوقت فهو مهما ابتكر واخترع لن يستطيع أن يدفع عقارب الساعة إلى الوراء ولو ثانية، وكل ما في الحياة قابل للخسارة والربح إلا في الوقت فإنه خاسر لا محال، وسورة العصر في موجز آياتها ومختصر أحكامها ومفرداتها المنتخبة تعبر عن هذا الصراع بين الإنسان والوقت في هذه الحياة الموجزة ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ* ﴾ [العصر بتمامها].

وبدلا من أن تحث الثورة المصرية على العمل والكفاح من أجل رفعة البلاد جاءت بالإجازات والعطلات والراحات، وبدلا من أن نكتفي بيوم الجمعة للراحة، ونعمل ونكد باقي الأسبوع، جاءت الثورة بيومي الجمعة والسبت للراحة، وهذا مما نأسف له في ظل الظروف الاقتصادية المتردية للبلاد!.

ومن العجيب أن ترى بلدًا مثل اليابان يمتنع شعبها عن أخذ يوم أجازة إضافي قررته الحكومة ويأبون عليها ذلك، وفي حين أن المتهم في بلادنا يعاقب بالأشغال الشاقة تجد في اليابان (المنع من العمل) عقوبة قصوى للمتهم!.

إن الانسجام والتوافق مع تعاليم الإسلام التي تجعل الليل سكنًا وراحة، والنهار عملاً وسياحة، فيه الخير للفرد والمجتمع على السواء لأنه النظام الذي رتبه الخالق جل وعلا ووضعه بنفسه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٤]

ومن العيب على الإنسان وقد علم سبيل الهدى من الله تعالى أن يخالفه أو يتعلل بعلل ليست من الفهم أو الفقه في شيء.

---

(١٠) رواه الترمذي ٢٤١٧، الدارمي ٥٣٧، السلسلة الضعيفة ١٩٢٢.

إذا كنت في أمر فكن ذا عزيمة فإن فساد الأمر أن تترددا[١١]

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يأخذ بأيدينا إلى ما يحبه ويرضاه.

(١١) البيت لأبي جعفر المنصور بتصرف.

الخاتمة

وبعد، فهذا ما منا به الرحيم الرحمن عليَّ من فهم لكتاب الله وسنة رسوله ×، وقد أجبت إخواني لما طلبوه مني بمتابعة هذه المقالات المؤثرة التي قد غيرت كثيرًا من الناس أو عملت على تغيير المحتوي النفسى والسلوكي بوقعها لكثير منهم.

ولكن في المقابل يقول الآخر إن بعضًا من هذه المقالات يُعد جلدًا للذات ويلقيها في معرض الذم لمن ينتقد نفسه أو أمته وذلك عند حديثنا عن سلبية تعترض طريق المسلمين بغية المقاومة والتصحيح، وأنا أقول: هذا تقييم للذات، فالله قد أدب الصحابة وأعلمهم أن الهزيمة حلت بسببهم وإعراضهم عن توجيهات رسولهم، فيجب عليهم أن يفيئوا إلى رشدهم وينصاعوا لكلام نبيهم، فقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران١٦٥]

فهل كانت هذه التوجيهات الربانية جلدًا للذات كما يزعم بعض من ليس له علم، أم إنها تقييم للذات؟!، وغيرها كثير من الآيات على هذه الشاكلة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة٣٨-٣٩]

فأسأل الله أن تكون هذه كسابقتها أو خيرًا منها في وقعها وتأثيرها، والله هو لا غيره المستعان وعليه التكلان.

وآخر دعونا ان الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

تَقْدِيمُ الأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ/ فَتْحِي جُمُعَة....حَفِظَهُ اللهُ. ٤

مُقَدِّمَة ٥

منْهاج الاعتِدالِ فِي تقييمِ الرِجالِ ٧

الصِفَات الجَلِيَّة لوُلاةِ الدَوْلةِ الإسْلاميَّة ١٦

منْهاج السُنَّة فِي النُهوضِ بحياةِ الأمَّة ٢٢

الكَلِمُ الطيِّبُ منْ الوابِلِ الصَيِّبِ ٢٨

الخَيْرُ الوفِيرُ فِي بعْضِ ما يكْرَهُه أناسٌ كَثِيرُون ٣٥

فشلُ المِصْرِيِّين بداءِ الثقةِ وزائِفِ اليقِينِ ٤٢

شَبَابُ سلفِنا الصَالِحِين قدْوةٌ للنَاشِئِين (٢/١) ٥٠

شَبَابُ سلفِنا الصَالِحِين قدْوةٌ للنَاشِئِين (٢/٢) ٥٥

امْتِثالُ السلفِ الأبْرارِ لأمْرِ النَبِيِّ المخْتارِ(٢/١) ٦١

امْتِثالُ السلفِ الأبْرارِ لأمْرِ النَبِيِّ المخْتارِ (٢/٢) ٦٨

ملْحُ الآياتِ القرآنيَّة فِي حياةِ سلفِنا العمَلِيَّة ٧٣

طلبَةُ علمِ الزمانِ فِي خبرِ كانَ ٨٠

نِساءُ الإسْلامِ قرَّةُ عيْنِ الزمانِ (٢/١) ٨٩

نِساءُ الإسْلامِ قرَّةُ عيْنِ الزمانِ (٢/٢) ٩٥

أطِبَّاءُ المحْرُوسَة .. فِي الطِينِ رُؤُوسُهُمْ مَغْرُوسَة! ٢/٢ ..... ٩٩

العطاءاتُ الرَبانِيَّة لِسَيِّدِ البَرِيَّة ١٠٥

الخُرافَةُ فِي الحَدِيثِ عنِ الفِراسَة ١١١

التواصُلُ الفِكْرِيُّ القوِيمُ بيْنَ الأنْبِياءِ والصَالِحِين ١١٧

الكِتابُ والسُنَّةُ أساسُ قانونِ الأمَّة ١٢٤

الشهرةُ وحبُ الظهورِ يقْسِمانِ الظهور ١٣١

دَواءُ سَيِّدِ المرْسَلِين لِداءِ المتْرفِين ١٣٩

بَرَكَةُ البُكُورِ وقِلَّةُ الحُمُولِ ١٤٧
الخاتمة ١٥٤
الفهرس ١٥٥